رحلة سندباد 8

في جزيرة النسانيس

محمد سعيد العريان

رحلات سندباد

محمد سعيد العريان

8

في جزيرة النسانيس

صلة الماضي

مرت السنون وشب سندباد بلا أب ولا أم .. فقد خرج أبوه في رحلة من رحلاته التجارية، على أن يعود بعد بضعة أسابيع.. ومضت الأيام ولم يعد الأب. أما أمه فقد ماتت بعد مولده بأيام، حزنًا على فراق أبيه الذى لا يدري أن الله قد رزقه ابنًا.

عاش سندباد سعيدًا بين عمته "مشيرة" وأخته "قمر زاد" وكلبه "نمرود" فلما كبر كشفت له عمته ما كان من شأن أبيه "شهبندر" فصمم على الرحيل للبحث عنه ليعرف أخباره فأعد العدة وقام بعدة رحلات بحثًا عنه، طاف في بلدان كثيرة، تعرف فيها على أناس لاقى منهم الصديق والعدو. وصادفته أزمات ومتاعب، وتعلم منها الكثير. عرف طباع شعوب وسمع الكثير عن أخبار أبيه.

وفى آخر رحلاته صاحب مجموعةً على ظهر سفينة رست على أحد الموانئ فأقام في فندق تعرض فيه لمصائب، وعرف بعدها السر وراء هذه المصائب، وهو اختفاء كنز عظيم القيمة يغري صاحب المطامع بالجريمة.

وعندما تهيأت الظروف لسندباد وعثر على الكنز. سرقه لصان.. ولاقى سندباد في سبيله الموت غرقًا.. فأنقذه رفاقه الذين كانوا معه على ظهر السفينة، وعلموا منه القصة فقرر الشيخ مساعدته للحصول عليه.

1

المد والجزر

قال سندباد :

قضينا نهارنا كله على شاطئ البحر؛ فلما غربت الشمس أشار الشيخ إليَّ لأتبعه، فتركت أبا الإسعاد مع حنظل وتبعتُ الشيخ؛ فلما صرنا بعيدين عنهما قال لي: اجلس أحدثك يا سندباد.

ثم مال عليَّ وهو يقول باسمًا : أنت شابٌّ مُسْعَد يا سندباد، فسيكون ذلك الكنز بين يديك بعد ساعات، لا يشاركك فيه أحد من أولئك الطامعين الخونة؛ جزاء إخلاصك وصبرك!

فاستعجبت وقلت : لقد غاص ذلك الكنز في الماء كما سمعت فمن أين أحصل عليه ؟ وكيف يصير بين يدي؟

قال : انتظر وسترى ...

وكان الليل قد بدأ يزحف، فنظر الشيخ نحو البحر، ثم قال : بعد ساعة ينخفض ماء البحر كأنما تسرَّب في مجار مجهولة، ويتكشَّف القاع حتى نرى ما كان تحت الماء ؛ فنعرف طريقنا إلى الكنز!

ومضت ساعة ونحن جالسان في مكاننا نرقب السماء؛ ثم خطا الشيخ

نحو الشاطئ وخلَّفني جالسًا حيث كنت، ولكني وجدتُ في نفسى قوةً تدفعني إلى متابعته، فمشيت وراءه حتى بلغت الشاطئ، ووقفت إلى جانبه أنظر إلى الماء؛ فما كان أشد دهشتي حين رأيت الماء قد بدأ ينحسر عن الشاطئ رُوَيْدًا رويدًا، في تكشف قاعه دراعًا بعد ذراع؛ فخطا الشيخ خطوتين وهو يقول : اتبعني يا سندباد !

فترددتُ برهة، كأنما خشيت أن يعود الماء إلى الارتفاع فيغرقني؛ ولكنى تشجعت وخطوت خطوتين وراءه؛ ثم وقف الشيخ فوقفت ..

واستمر الماء ينحسر عن الشاطئ رويدًا رويدًا، واستمر القاع يتكشف ذراعًا بعد ذراع، والشيخ يخطو مبتعدًا عن الشاطئ خطوةً بعد خطوة، حتى صرنا على بعد مئة ذراع؛ فرفع الشيخ رأسه نجو الجبل، حيث كانت فتحة السرداب؛ ثم قال لي: انظر، أترانا قد وصلنا إلى مَرْمى الفتحة، وهل ترى أشرس لم يزل واقفًا هنالك!

فنظرت، ولكنَّ ظلام الليل كان يكسو الجبل كله، فلم أر فتحة السرداب ولم أر أشرس؛ إن الظلام كثيف فلا أستطيع أن أرى ...

قال : حسبتُك أحدَّ منى بصرًا يا سندباد !

ثم صمت برهةً وعاد يقول : ولكنى أستطيع أن أجزم بأننا الآن على مَرْمَى فتحة السرداب؛ فقد كنتُ أعدُّ خطاي منذ بدأتُ السير ...

ثم مال الشيخ إلى اليمين فخطا خطوتين، ووقف لحظة، ثم نظر إليَّ قائلًا : لو كنتَ حديد النظر يا سندباد كما أظن بك، لرأيت ذلك الكنز قريبًا منك؛ فانظر حواليك وتحت رجليك..

وكانت السماء صافية، فاستطعت أن أرى في ضوء النجوم ما تحت قدميَّ وبعض ما حولي، فازددت تحديقًا لعلى أرى ذلك الكنز، وأنا أخطو خطوات بطيئةً على حذر إلى الأمام، وإلى الوراء، وإلى يمين؛ وإلى شمال...

ولمحتُ على البعد شيخًا جاثمًا، فتراجعتُ إلى الوراء خائفًا، ووثب بي الخيال إلى أشرس، فبدا لي كأنه هو الشبح الجاثم ...

ولمحني الشيخ أتراجع، فقال لي: ماذا يا سندباد؟

قلت : ذلك الشبح الجاثم هنالك، أظنه أشرس الخائن!

قال الشيخ ملهوفًا : أين ؟ فإنني لا أراه !

فتشجَّعت وتقدَّمت، واندفع الشيخ إلى حيث أشرتُ فسبقني؛ ولم يلبث ذلك الشبح أن انكشف لأعيننا، فإذا هو " شيء " لا إنسان فلم يكد الشيخ يراه حتى ازداد اندفاعًا إليه وهو يقول : إنه الكنز ...

وسحرتني تلك الكلمة ومنحتني قوةً غير عادية، فأسرعت وراء الشيخ وأنا أردد بلا وعي: الكنز!..

وخُيِّلَ إليَّ في تلك اللحظة أن الدنيا قد ازدادت نورًا، وأن نجوم السماء أشدُّ لمعانًا وضياءً مما كانت منذ لحظات؛ إذْ بدا المنظر لعينيَّ في تلك اللحظة واضحًا أشد الوضوح، كأننا ماشيان في ضوء النهار؛ فزادني ذلك النور استبشارًا وأملًا..

ولكن ذلك الاستبشار لم يلبث أن ذهب حين سمعتُ الشيخ يهتف بي في خوف : القمر!

ثم رأيتُه يستدير عائدًا نحو الشاطئ وهو يقول : اتبعني سريعاً؛ لقد ظهر القمر يا سندباد، وعاد الماء يزحف نحو الشاطئ!

وأحسست في تلك اللحظة كأن جيوشًا زاحفةً تطاردني وأنا أعدو وراء الشيخ؛ ولم أكن في هذا الإحساس واهمًا، فإنماء البحر قد بدأ يرتفع زاحفًا وراءنا، وكان اندفاعه سريعًا وقويًّا حتى يئست من إمكان بلوغ الشاطئ قبل أن تدركنا أمواجه الزاحفة...

ولو أننا تأخرنا دقيقةً أو دقيقتين ولم نسرع إلى الشاطئ لغرقتُ وغرق الشيخ معي؛ ولكننا تنبهنا قبل أن يغطي علينا الماء فيغرقنا، وأسرعنا فنجونا ولم نكد؛ فما هي إلا لحظات بعد وصولنا إلى الشاطئ حتى عاد الماء إلى ارتفاعه، وعاد الموج إلى صخبه وعنفه، وعلا الزَّبدُ فوق سطح الماء كأنه في ضوء القمر فضة ذائبة...

وتذكرت – حين رأيت ذلك الزَّبدَ الفضيَّ – الكنز الذى تركناه تحت الماء، فكأنما خُيِّل إليَّ أن هذه فضَّته الذائبة!

ووقف الشيخ على الشاطئ يلهث، ووقفت إلى جانبه صامتًا، والأفكار تصطرع في رأسي، وفى نفسي شعور عميق بالأسف !

ولم يلبث الشيخ أن استردَّ هدوءه وانتظمتْ أنفاسه، فوضع يده على كتفي وهو يقول فيم تفكر يا سندباد؟

قلت : إنني أفكر في ذلك الذي انحسر عن الشاطئ فجأةً، كأنما تسرَّب في مجارٍ عميقة تحت الأرض؛ ثم عاد فارتفع فجأةً، كأنما انحدر به سيل من وراء الجبل...

قال الشيخ : إن انحسار الماء عن الشاطئ يا سندباد لم يكن أمرًا مباغتًا؛ فقد كنت أتوقَّعه قبل أن يكون؛ ولذلك صحبتُك إلى هذا المكان منذ ساعات، انتظارًا للساعة التي ينحسر فيها الماء فنخوض إلى الكنز؛ ولم يكن ارتفاع الماء في البحر مباغتًا كذلك، فقد توقعَّته منذ لمحت القمر؛ ولذلك أسرعت عائدًا إلى الشاطئ ودعوتك إلى الإسراع معي، لننجو قبل أن يغمرنا الماء فنهلك!

فقلت له : كيف عرفتَ أن الماء سينحسر قبل أن ينحسر، فاستعددت لخوض البحر؛ وكيف عرفتَ أنه سيرتفع قبل أن يرتفع ، فأسرعت بالفرار؟

قال الشيخ : ذاك هو الجزْر والمدُّ يا بني كما يسميهما علماء الجغرافيا في هذا الزمان؛ وكل الذين يعيشون بالقرب من شواطئ البحار يلاحظون أن الماء ينحسر عن الشاطئ حين يغيب القمر، ويرتفع حين يظهر القمر، فيسمُّون انحساره جزْرًا، ويسمون ارتفاعه بعد ذلك مدًّا...

وعلى أساس ما أعرف من هذه الحقيقة دبَّرتُ أمري للحصول على الكنز، ولكن المد في هذه الليلة كان أسرع مما قدَّرت؛ ولكننا لن نُفلتَ الكنز، فنقضي يومًا آخر في هذا المكان ، لنعاود المحاولة في الليلة القادمة...

وصمت الشيخ برهة ثم قال : ولكني أخاف تدبير أشرس؛ فإني لا أعرف أين هو الساعة، لعله كان عند فتحة السرداب ينظر إلينا من حيث لا نراه، ولعله قد عرف بالمشاهدة ما عرفناه من سر الجزر والمد، فيسبقنا إلى الكنز!

وعاد الشيخ إلى الصمت وهو يقرض بأسنانه طرف شفته وقد استغرقه الفكر، ثم استأنف قائلًا: لو كنت أعرف أين هو الساعة....

وقبل أن يُتم الشيخ قوله، برز لنا من بين الظلام شبح، فارتمى على الشيخ قائلًا : هأنذا !

2

ذئبان يتصارعان

قال سندباد :

كان أشرس واقفًا في الظلام على مقربة منا يسمع إلى حديثنا فلما سمع ما قاله الشيخ، اندفع إليه وارتمى فوقه، وجثم على صدره وهو يقول له: لن يكون الكنز لك ؛ لأنه كنزي، ولن يناله أحد غيري!

ولم أجد من المروءة أن أترك الشيخ فريسة في يد ذلك الشرير، فارتميت فوقه أضربه بجمع يدي دفاعًا عن الشيخ، ولكنه لم يلبث أن قام، ثم التفت إليَّ وهو يقول مهدِّدًا : والله لأقتلنَّك!

ثم اندفع إليَّ اندفاع الوحش، فاجتمعت قوتي كلها في رجليَّ وأخذت أجري، وأشرس يجري ورائي؛ وكلما سمعتُ وقع خطاه خلفي أسرعت في الجري؛ ولكن خوفي منه أعماني عن الطريق، وكان طريقًا كثير العثرات والحُفَر، فلم أشعر إلا وأنا في قاع حفرة منها؛ وقبل أن أتدبَّر أمري رأيت ظلَّه يثب إلى الحفرة، ثم وقعَ في قاعها مثلي؛ ولكن سقطته كانت عنيفة، فإنَّ جسده لم يكد يمس القاع حتى صاح صيحةً شديدةً ثم سكت، فظننته قد مات، وانحنيت

فوقه لأعرف ماذا به، وقد نسيت كل ما كان بيني وبينه من العداوة؛ ولكني لم أكد ألمسه حتى أفاق وصاح صيحةً أشد، فتراجعتُ عنه خائفًا وأنا أقول لنفسي : "لماذا أسعى إلى الشرِّ برجلي"

ولم تكن الحفرة عميقة كما ظننتُ في أول الأمر، فاستندت بيديَّ على جدارها وهممت أن أثب هاربًا؛ ولكني رأيتُ شبحًا يدنو من الحفرة وهو يقول بصوت مبحوح : من هناك؟

فظننتُ أنه الشيخ وقلت مطمئنًّا : أنا سندباد!

فلم أكد أقولها حتى ظهر لي الشبح واضحًا؛ فإذا هو حنظل فقلتُ لنفسي قلقًا : لقد نجوتُ من شرٍّ لأقع في شرٍ مثله!

ولكني اصطنعتُ الهدوء والطمأنينة وقلت في صوت طبيعي : أنت حنظل؟ لقد جئت في اللحظة الملائمة؛ فأين أبو الإسعاد ؟

فقهقه ضاحكًا وقال : إنه بعيدٌ عنك فلن يبلغه صوتك!

وعرفتُ نغمة التهديد في كلامه، ولكني تجاهلت ذلك، وقلت وأنا أثب من الحفرة : أدرك صاحبنا بالحفرة يا حنظل، فإنه جريح مرضوض العظم!

فأجابني في لهفة: الشيخ بالحفرة ؟

ولم ينتظر جوابي، إذ وثب إلى الحفرة وهو يظنه بها، ليعجِّلَ بالخلاص منه؛ ولكنه لم يكد ينزل حتى رأى أشرس، فثارت في نفسه البغضاء، وهجم عليه وهو يقول : قتلني الله إن لم أقتُلْك يا خائن !

ولم يلبثا أن تماسكا وعلا صياحهما؛ فقلت لنفسي : دع الذئب للذئب يأكله وانج بنفسك يا سندباد!

ثم أسلمت رجليَّ للريح عائدًا إلى الشيخ، فإذا هو مقبلٌ نحوي وفى وجهه أمارات قلق شديد، فابتدرني قائلًا في لهفة : ماذا فعلت؟ وكيف خلصت من أشرس؟

قلت ضاحكًا : لقد خلصت من أشرس ومن حنظل جميعًا؛ فقد تركتهما متماسكين وقد أقسم كلٌّ منهما أن يقتل صاحبه!

قال الشيخ وقد زاد قلقه : وماذا جاء بحنظل إلى هنا وقد تركناه منذ ساعات مع أبى الإسعاد ؟ ..وأبو الإسعاد ماذا جرى له ؟

قلت : لا تخف عليه، فإنه – في ما أرى – يحسن الدفاع عن نفسه!

قال وهو يقترب من الحفرة التي يقتتل فيها اللصان: بل أنا خائف عليه يا سندباد، وأخشى أن يكون حنظل قد غدر به؛ فإن صاحبك أبا الإسعاد رجل ذو قوة، ولكنه طيب القلب يسهل خداعه!

وكان اللصان ما يزالان مشتبكين في عراك عنيف، ولكن الشيخ هجم عليهما قائلًا : كفى أيها الصديقان !

فأجاب كل منهما في نفس واحد : بل دعني أقتل ذلك الخائن !

قال الشيخ وهو يوليهما ظهره : أسأل الله أن يحقق لكما ما تريدان !

قلت : أنتركهما يا عم ؟

قال وهو يبتعد : لو لم يقتتلا لانفرد كل منهما بواحد منا ليقتله !

وبلغنا الموضع الذي تركنا فيه أبا الإسعاد جالسًا مع حنظل منذ ساعات، ولكننا لم نجده حيث كان، فأسرعنا إلى حيث كان الزورق مربوطًا، ولكننا لم نجده كذلك : فصرَّت أسنان الشيخ غيظًا ثم أردف : إن صاحبك أبا الإسعاد رجل فيه غفلة وحمُقْ، وأظنه قد استبطأ عودتنا فذهب.

وانقطعنا عن إتمام الحديث حين سمعنا أصوات مجاديف تضرب الماء متتابعة في نظام وهى تقترب منا، فقال الشيخ : أيُّ شرٍّ يقترب منا الساعة يا ترى؟ تعال نختبئ يا سندباد حتى نعرف ما شأن هؤلاء القادمين إلى هذا الشاطئ في ظلام الليل !

3

عــواء كلب

قال سندباد :

اختبأنا في ظل صخرة على الشاطئ ونحن نسمع أصوات المجاديف تقترب منا رُوَيدًا رُوَيْدًا، ثم سكتت أصوات المجاديف وسمعنا صوت رجلين يتحدثان. فعرفنا أن القادمين قد بلغوا الشاطئ؛ فأرهفنا آذاننا لنسمع حديثهم؛ فعرفنا صوت أبى الإسعاد، فخرجنا من مخبئنا مطمئنين واتجهنا إليه؛ وقبل أن يتنبَّه إلى وجودنا بالقرب منه صاح به الشيخ : ها نحن قد عثرنا بك قبل أن تعثر بنا !

فالتفت أبو الإسعاد نحونا، فرآنا وعرفنا؛ فاندفع نحونا وهو يقول فرحًا : الحمد لله على سلامتكما!

وكان رفقاء أبى الإسعاد من أصحاب الشيخ، فازداد اطمئنانًا وأمنًا، وازددت اطمئنانًا وأمنًا مثله؛ ثم قلنا لأبى الإسعاد : ماذا ذهب بك وماذا جاء يا أبا الإسعاد، وقد تركناك مع حنظل ؟

قال أبو الإسعاد : لقد كان حنظل الملعون على نية الغدر بنا؛ فلما تبينتُ نيته تظاهرتُ بالغفلة وأطعته في كل ما كان يأمرني به؛ ثم تبينتُ أنه يريد أن يرميني في الهلاك ليفرغ لكما، إذ قال لي: لقد غاب صاحباك يا أبا الإسعاد، وأخشى أن يكون أشرس الشرير قد هبط إلى

الشاطئ فرآهما ودبَّرَ هلا كهما؛ فاذهب فتسلَّق هذه الصخرة وانظر حواليك، لعلك أن تراهما في ضوء القمر قريبين أو بعيدين!

وكانت صخرةً معلَّقة، يمكن تسلُّقها ولا يمكن الهبوط عنها إلا بمعونة، فتحيرت برهةً، ثم تظاهرت بطاعته وتسلقت الصخرة؛ فلما صرتُ فوقها رأيت في عينيه نية الغدر واضحةً، فأردت أن أحتال لخلاصي وخلاصكما، فهتفت به من فوق الصخرة: سأنزل يا حنظل إن الرياح تعصف وتكاد تقتلعني من مكاني لتقذفني في البحر !

قلت هذا ووقفت أترنَّح فوق الصخرة كالسكران، فضحك ضحكةً خبيثةً وقال لي: تشجَّع يا أبا الإسعاد، ثم انظر حواليك لترى ..

فشممت ريح التهديد في صوته، ونظرت إلى جانبي فرأيت البحر يتدافع بأمواجه، فألقيت بنفسي بين أحضان الموج ..

قال الشيخ وهو يعض على شفته : لقد خاطرت بنفسك مخاطرةً عظيمةً يا أبا الإسعاد!

قال أبو الإسعاد : لم يكن في الأمر مخاطرة يا سيدى، فأنا سبَّاحٌ ماهر؛ ولم يكن حنظل يعرف ذلك؛ فانصرف عنِّى معتقدًا أنني غرقت، ومضى ليدبِّرَ أمره؛ أما أنا فأخذت أضرب الماء بذراعيَّ حتى بلغتُ مكان الزورق، فوثبت إليه، ثم عدتُ به إلى المدينة ألتمس رفقاء يعينونني على تخليصكما من كيده..

*****

وقطعنا في الحديث ساعةً قبل أن نفكر فيما كان من أمر حنظل وصاحبه أشرس، ثم تذكرنا، فاتجهنا إلى حيث كانا ....

وكان انتشار الضوء يؤذن بقرب طلوع النهار، والنسيم الرطب يملأ نفوسنا نشاطًا وخفة، وكنا ستة نفر، فمشينا مطمئنين ممتلئين ثقةً وأملًا ...

ولكننا لم نلبث أن وقفنا جميعاً؛ إذ طرق آذاننا عواء ذئب قريب، وأخذنا نتلفَّت حوالينا في اضطراب وذعر، ولكن أبا الإسعاد عاد سريعًا إلى الهدوء والطمأنينة، ونظر إلينا قائلا : أتخاف ونحن ستة؟

ثم سبقنا على الطريق فتبعناه؛ وتردد عواء الذئب في آذاننا مرة أخرى، فقال أحدنا: ليس هذا عواء ذئب واحد، إنه قطيع من الذئاب!

وفى تلك اللحظة رأيت منظرًا عجيبًا، فقد جَثَا أبو الإسعاد على ركبتيه وأخذ يعوى عواء الكلب: **هَوْ هوْ، هوْ !**

فتردَّدت أصداء عوائه في آذاننا ومن حوالينا كأنه عواء كلب؛ فلولا أنني كنت أراه وأسمعه لما صدقت أنه صاحب ذلك العواء؛ ولكن الذئاب صدَّقتْ، فلم يكد عُواؤه يبلغ آذانها حتى انطلقت هاربة ..

ثم بلغنا الحفرة، حيث كان حنظل وأشرس يتعاركان منذ ساعة، ولكننا لم نجدهما، ووجدنا ثيابهما في القاع ملوثة بالدم..

4

فريسة الذئاب !

قال سندباد :

وقفنا صامتين ننظر إلى ثياب أشرس وحنظل ملوّثةً بالدم، فلم نشك في أن الذئاب أكلتهما !

ثم ابتعدنا عن الحفرة والحزنُ يملأ قلوبنا، وفى نفوسنا شعورٌ خفىٌّ بالخوف على أنفسنا من مثل ذلك المصير!

وأشرق علينا الصبح ونحن لم نزل نفكر في أمرنا؛ فلما انتشر الضوء نظرتُ إلى الشيخ قائلًا: أليس من الخير لنا أن نعود سالمين؟

فابتسم وقال : أتريد أن نعود بغير الكنز يا سندباد؟

قلت : ومن أين لنا الكنز، وقد طغى عليه ماء البحر فلا سبيل إليه؟

قال : لقد طغى ماء البحر، ولكنه سينحسر عنه مرة أخرى إذا جاء المساء وسطع القمر، كما رأيت أمس!

قلت : أنبقى هنا إلى المساء ونخاطر بأرواحنا من أجل الكنز؟

فربَّت كتفي قائلًا : أنت أشدُّ خوفًا مما كنت أظن يا سندباد!

قلت : ألا تخاف الذئاب؟

قال : وهل تخاطر الذئاب بأنفسها فتعود إلينا ومعنا أبو الإسعاد ؟

حينذاك سمعت صوت أبى الإسعاد ينطلق من فمه مرة أخرى مثل عواء الكلب : هَوْ هَوْ، هَوْ !

ثم أرسل ضحكةً مرحةً وقال : إن الذئاب تخاف هذا العواء أكثر مما يخافها الناس؛ فاطمئنَّ يا سندباد، فسأكفيك شرَّها!

قلت ضاحكًا : أنت " نمرود "!

فضحك أصحابنا جميعًا وقد فهموا النكتة، أما أبو الإسعاد فلم يضحك؛ لأنه لم يكن يعرف " نمرود" ولم يسمع باسمه من قبل ..

وتذكرتُ نمرود في تلك اللحظة ...

واسترسلتُ وراء خواطري أحاول أن أتذكر أين فارقني نمرود ومتى، ولكن الشيخ أبعدني عن الفكر حين قال لي: سنقضى اليوم هنا كما قضينا أمس؛ فإذا سطع القمر وانحسر الماء عن الشاطئ، خُذْنا إلى الكنز حتى نبلغه، فنأخذه، ثم نعود إلى المدينة ..

واتجهنا إلى الشاطئ، حيث أرسى أبو الإسعاد الزورق، ولكننا لم نكاد نمشى بضع خطوات حتى وقفنا بغتة؛ فقد رأينا على مدِّ البصر جثة إنسان، فأسرعنا إليها جميعًا دون أن نتبادل كلمةً واحدةً وكانت جثة أشرس.

فلما اقتربنا منها سمعنا أنينًا خافتًا، فعرفنا أنه لم يزل حيًّا؛ فلم نذكر في تلك اللحظة إلا أنه إنسان مثلنا يحتاج إلى معونة ...

وكنت أسرعهم إليه، فجثوت إلى جانبه لأعرف ماذا به، فإذا هو جريح مرضوض العظم لا يقوى على حركة ولا كلمة ولا إشارة؛ ولم يكن يستر جسده إلا قميص ممزق يكشف عما وراءه من جروحه؛ فلم أكد ألمسه حتى انتبه ونظر، ثم قال : سندباد ؟ الرحمة والعفو يا سندباد!

قلت : ماذا بك يا أشرس؟ وأين الثياب التي كانت عليك؟

قال : رجلي مرضوضة منذ سقطتُ في تلك الحفرة، وثيابي هَبَرَها الذئب ليأكلني، فانخلعتُ منها وفررت هاربًا؛ ولكن الذئاب الأخرى أدركتني، فأوقعتني وأنشبت أنيابها في جسدي، ثم أنقذني منها كلب يعوى، فهربتْ عنى وتركتني؛ وأنقذني عُواؤه من التمزيق!

وكان أبو الإسعاد قد أدركني فجلس إلى جانبي يستمع إلى حديث أشرس؛ فلما رآه يعترف بجميل ذلك الكلب، ابتسم ثم أرسل من فمه عواءً مُتصلًا: هَوْ هَوْ هوْ... هوْ !

فحدَّق أشرس في وجهه لحظةً ثم قال: أنت؟ إنني مدين لك بعمري يا أبا الإسعاد، فسامحني وانس ما كان مني إليك !

ثم غُشي عليه مرةً أخرى؛ فأخذت أعالجه ليفيق، وانصرف إليه وحده تفكيري وتفكير أصحابي، فلم ننتبه إلا على صوت يهتف من ورائنا: دعوه يموت؛ إنه شرير خائن لا يستحق الحياة!

فالتفتنا جميعًا إلى وراء، فوقعت أعيننا على حنظل؛ وكانت رؤيته مفاجأةً أخرى، إذ كنا نعتقد كذلك أن الذئاب قد افترسته؛ ولاحظت أنه – مثل صاحبه – ليس عليه إلا قميص؛ فقلت له: أين ما كان يسترك من ثياب يا حنظل؟

قال : انخلعت منها وتركتها بين أنياب الذئب، وقلَّدني هذا الجبان فنجا بجلده!

ثم هجم على أشرس ليقتله، فمنعناه؛ وانتبه أشرس من غشيته في تلك اللحظة، فأنَّ أنينًا خافتًا، ثم هتف ضارعًا: أنقذوني ينقذكم الله!

فأخذتني الشفقة عليه، وجلست إلى جانبه أحاول أن أعالجه؛ والتفَّ أصحابي حول حنظل ليمنعوه أن يقترب ...

ولم يكن معي قطن، ولا شاش، ولا مرهم، ولا مطهِّر، ولا ماء نقي؛ ولكني استطعت برغم ذلك أن أخفف بعض آلامه، فقد أبعدتُ قميصه عن مواضع الجروح، حتى لا يحتك بها في تألم؛ وأزلت ما كان متجمدًا عليها من الدم بلطف، ثم أسندت ساقه المرضوضة إلى صخرة بجانبي؛ لأمنعها من الحركة فتخفَّ بعض آلامه ...

وكان بعض أصحابي قد ابتعدوا بحنظل، وبقي اثنان منهم إلى جانبي، فطلبتُ منهما أن يعاوناني على حمله إلى الشاطئ؛ ثم غسلت جروحه بماء البحر، وجعلت عليها رباطًا من قميصه، ثم حملناه إلى الزورق فألقيناه في قاعه؛ وعدنا إلى الشاطئ لننتظر سائر أصحابنا ..

وكنا نحفظ طعامنا في قاع الزورق، فلم يكد يشم ريحه حتى زحف إليه، ثم كشف عنه غطاءه وأخذ يأكل، دون أن يفكر في حق الذين أنقذوه من الموت، ليقدِّم دليلًا لنا على أن اللص لا ينسى " حرفته " حتى اللحظة الأخيرة من عمره!

ولم يلبث أصحابنا أن جاءوا وليس بينهم حنظل؛ إذا ابتعد مُغضبًا فلم يتبعوه؛ فانحدرنا إلى الزورق وقد عاد إلينا الشعور بالجوع، وتذكرنا الطعام، ولكن بعد أن ذهب أشرس بأكثره؛ فلما رآنا مقبلين عليه كفَّ عن الأكل واستلقى في مكانه وهو يقول : إنني عطشان فهل عندكم ماء عذب؟

قال أبو الإسعاد وهو يمد يده إليه بقلة ماء مبرَّد : خذ، لا بارك الله لك في طعام ولا شراب!

فقال : ارفعوها إلى فمي، فإني لا أقوى على حملها !

فحملها أبو الإسعاد إلى فمه فسقاه، ثم عاد إلى ما بقي من الطعام فقسمه بيننا، وكان نصيبي لُقيمات قليلة ولكنها كافية، فأكلت وشربت؛ وحمدت الله، ثم شعرت بأجفاني تثقل فكوَّعت إلى جانب أشرس؛ ولكن أبا الإسعاد لكزني قائلًا : ليس هذا وقت النوم !

وقال الشيخ موافقًا : نعم فهيا إلى الشاطئ، ودع أبا الإسعاد فإن عليه واجبًا آخر....

فأطعتُ وبي غيظٌ شديد، ووثبتُ إلى الشاطئ، ووثب أصحابنا جميعًا، فلم يبق في الزورق غير أشرس وأبى الإسعاد؛ فلما صار وحيدًا مع أشرس في الزورق، حل رباط الزورق وأدار دفتَّه، ثم أخذ يجدِّفُ مبتعدًا عنا، ولم يلبث أن اختفى عن أعيينا؛ فنظرتُ إلى الشيخ مستفهمًا، فقال: سيذهب بأشرس، ثم يعود إلينا بطعام وماء!

وجلست إلى جانب الشيخ في ظل الصخرة التي كنا نختبئ خلفها منذ ساعات، وجلس أصحابنا حوالينا ..

وثقلتْ أجفاني مرةً أخرى، فقلت للشيخ : هل أستطيع أن أنام الآن؟

فابتسم الشيخ قائلًا : إذا أردت فنم ..

فهممتُ أن أطوي ذراعي تحت رأسي وأستسلم لنومة هنيَّة؛ ولكنِّي تذكرت الذئاب التي كانت تعوي، فطار النوم من عينيَّ وقلت للشيخ : أكان من الضروري أن نبقى ويذهب أبو الإسعاد؟ ألم يكن من الخير أن يذهب غيره، ويبقى هو ليطرد عنا الذئاب ؟

قال الشيخ باسمًا : أتعني هذا ؟ لا تخف؛ فقد تعلَّمنا جميعًا كيف نكون "نماريد" حين تعوي الذئاب ...

ولم يكد ينتهى من كلمته حتى سمعتُ حواليَّ من كل جانب عُواءً متصلًا متنوِّع النغم : هَوْ هَوْ هَوْ ...

كأنما أغار علينا فجأة قطيع من الكلاب ينبحنا؛ فأزعجتني المفاجأة، ولكنِّي لم ألبث أن ضحكتُ فأغرقت في الضحك، حين عرفتُ مَنْ أولئك النماريد! ...

5

وجدتُ الكنز !

قال سندباد :

نمتُ نومًا عميقًا، فلم أفتح عينيَّ منذ توسَّدتُ ذارعي في الصباح حتى سمعت من ينادينا وقد اصفرَّت الشمس للمغيب؛ وكان الذي ينادينا هو أبو الإسعاد وقد عاد من رحلته؛ فسألته: أين ذهبت بأشرس ؟

قال وهو ينظر حواليه: حدِّثوني أولًا عن الشيخ؛ فإني لا أراه بينكم!

فنظرتُ حواليَّ مثله ونظر أصحابنا جميعًا، فلم نر الشيخ؛ فقلقتُ لغيابه؛ وزاد قلقي حين تذكرت الذئاب العاوية. فهببت واقفًا وأنا أقول: هيا يا أصحابي نبحث عنه، فإني أخاف عليه عُدوان الذئب !

قال أبو الإسعاد : الذئب !

ثم أخذ يُرسل من فمه عُواءً متصلًا : هَوْ هَوْ ....

فعوى أصحابنا جميعًا هَوْ هَوْ هَوْ ....

فلم نلبث أن سمعنا عواءً يجيبنا من بعيد هَوْ هاو ...

فلم يكد أصحابنا يسمعون ذلك العواء حتى ارتعبوا وكفُّوا عن عوائهم، واتجهوا نحو الزورق فارِّين، غيري وغير أبى الإسعاد ...

ولم يكن بقائي عن شجاعة، وإنما وقع في ظنّي أنَّ هذا العواء الذي يطرق أذنيَّ من بعيد ما هو إلا صَدَى العواء الذي يرسله أصحابنا؛ ولكنَّ أصحابنا كفُّوا ولم يكف ذلك العواء؛ فخاب ظني، وامتلأتُ مثلهم رعبًا !

ولكن أبا الإسعاد نادانا وهو يضحك : عودوا أيها الشجعان إنما هو شيخكم يجاوبكم بعوائه لتطمئنوا ...

وكان الشيخ قد صحا قبلنا من نومته، فتركنا نيامًا وذهب يجوس خلال الشاطئ مستطلعًا؛ فلما سمع عواءنا من بعيد فهم أننا نناديه، فعوى مثلنا ليشعرنا بمكانه؛ ولم يلبث أن عاد إلينا . . .

فلما غربت الشمس قال لي الشيخ: قد حانت الساعة فاستعد ...

وفهمتُ من قوله أنه يريدني وحدي؛ فشعرتُ بالقلق، ولكني لم أجسر على الاعتراض ...

ثم نظر الشيخ إلى أبي الإسعاد وأصحابه فقال : ستنتظروننا هنا حتى نعود، وأرجو ألا نغيب عنكم طويلا . . .

ثم وضع يده على كتفي وهو يقول : هيا يا سندباد ...

فانقدتُ له طائعًا، واتخذنا طريق الأمس متجهين نحو الشاطئ البعيد، حيث رأينا الكنز مغروزًا في قاع البحر ..

ووصلنا إلى حيث أردنا، وابتدأ الجزر، وأخذ الماء ينحسر عن الشاطئ، فخضْنا وراءه لنظفر بالغنيمة قبل أن يعود الماء إلى الارتفاع ...

وكان طريقنا واضحًا معروفًا؛ فقد عرفنا منذ الأمس مكان الكنز؛ ولكننا لم نكد نخوض إليه نصف المسافة حتى رأينا ظلًّا يتحرك على الماء؛ فوقفت ووقف الشيخ برهةً لا نتكلم، ثم استأنفنا السير في شجاعة، وقد وقع في ظننا أن ذلك الظل الذي رأيناه ليس إلا وهمًا ..

لكن الظل لم يلبث أن ظهر لأعيننا واضحًا؛ ثم زاد وضوحًا؛ فإذا هو إنسان، ثم اتَّضح وبان فإذا هو حنظل الشِّرِّير؛ وكان يقصد مثل قصدنا ليستولي على الكنز ..

وكنتُ أتوقع كل مفاجأة إلا هذه المفاجأة، فتسمَّرت رجلاي في رمل القاع من شدة الخوف، ولكن الشيخ شدني من ذراعي وهو يقول : أسرع؛ يجب أن يكون اثنان أكثر شجاعةً من فرد!

واندفع الشيخ في سرعة عجيبة وهو يجرني وراءه، وكان حنظل مندفعًا مثلنا إلى حيث نقصد ..

ولم يكن من المعركة بُدٌّ، فاشتبك الشيخ وحنظل، وتماسكا يتضاربان؛ وصاح بي الشيخ وهو يحتضن خصمه ليتجنب ضرباته : لا تشغل نفسك بنا يا سندباد، أسرع أنت إلى غايتك!

فتركتهما واقفين يتصارعان على الرملة الرَّطبة وأسرعتُ إلى الكنز ...

ولم يكن انتزاعه من مكانه صعبًا، فحملته على رأسي ثم استدرتُ لأعود؛ فلما اقتربت من مكان المعركة سمعت الشيخ يصرخ فيَّ: أسرع إلى الشاطئ ودَعنا؛ فقد عاد المدُّ!

فأخذتُ أعدو بحملي نحو الشاطئ، وكأنما يطاردني مارد جبار فما بلغتُ الشاطئ حتى كان الماء ورائي كالطُّوفان، وقد اختفت وراء أمواجه الصاخبة جثة الشيخ وجثة حنظل جميعًا ....

6

ثمن الكنز !

قال سندباد :

لقد ظفرتُ بالكنز ولكنى فقدتُ شيخي؛ فما أفدح الثمن وأكبر الخسارة!

قلت هذا لنفسي وأنا واقف على الشاطئ أرقب المدَّ الزاحف، وقد غاب الشيخ وحنظل عن عينيَّ وابتلعهما البحر في جوفه العميق ...

وتمنيت في تلك اللحظة إنني لم أظفر بالكنز ولم أفقد الشيخ؛ ولعنتُ حنظل والأيام التي جمعتني به!

ثم بدا لي أن أسرع إلى أصحابي فأخبرهم، لعل لهم حيلة في إنقاذ الشيخ؛ ولكن أين هو لينقذوه، فإني لا أرى شبحًا ولا ظلًا، وليس أمامي إلا الأمواج المتلاطمة تحجب كل ما وراءها من صور الأحياء والموتى!

ونسيت من شدة الحزن أن أحمل كنزي، وكنت قد وضعته إلى جانبي على الشاطئ لأستريح من حمله لحظات، فلم أتذكره إلا حين قطعتُ نصف الطريق إلى أصحابي، ولكني لم أكد أهمُّ بالعودة إليه لآخذه حتى طرق أذنيَّ عواء الذئاب، فأخذت أعدو خائفًا وقد نسيت الكنز والشيخ وكلَّ ما كان يدور في رأسي من الخواطر، فلم يبق في نفسى شيء غير الرغبة في النجاة بحياتي . . .

ووصلت إلى أصحابي وجسمي يتصبَّبُ عرقًا؛ فلم أكد أستشعر الأمان برويتهم حتى ارتميت بينهم وأنا أقول : الذئاب!

فسمعتُ صوتًا يهتف بي من جانبي : أين الكنز يا سندباد ؟

فنظرت إلى محدثي فإذا هو الشيخ نفسه؛ فلم أستطع لدهشتي جوابًا ولا تحريك شفة . . .

وعاد الشيخ يسألني مُلحًّا : أين الكنز ؟

قلت : إنه هناك على الشاطئ!

فأجابني منكرًا : تركته لحنظل يأخذه غنيمةً باردة؟

ثم اندفع يجرى وهو يقول : والله لا يأخذه ولو هلكتُ دونه!

فرأيتني أجرى وراءه بلا وعى وأنا أقول مثله : والله لا يأخذه !

وأخذ أصحابنا يجرون وراءنا . . .

ووجدنا الكنز حيث تركته، فحمله الشيخ فرحًا، ثم عدنا؛ وكان عواء الذئاب يطرق آذاننا من بعيد، ولكنى لم أكن خائفًا، فقد كان معي "نمارید" كثيرون لا تجرؤ الذئاب العاوية على الظهور لهم !

ووصلنا إلى حيث كنا، فهممنا بالجلوس؛ ولكن الشيخ صاح بنا : لقد انتهت مهمتنا فلا بقاء لنا؛ هيا إلى الزورق!

وكان الزورق على مقربة منا؛ فقصدنا إليه واتخذنا مقاعدنا، وأخذ أبو الإسعاد يجدف مبتعدًا عن الشاطئ ..

وكان المدُّ في أعلى درجاته، والأمواج تتواثب حوالينا حتى تكاد تبتلعنا، وأبو الإسعاد مجدٌّ في التجديف لا يكاد يفكر في شيء من مخاطر هذه الرحلة الجريئة في ظلام البحر الهائج؛

وكان الشيخ إلى جانبي، وقد أسند ذراعه إلى الكنز الذي كاد يفقد حياته في سبيله؛ فتذكرت المعركة العنيفة التي كانت تدور منذ ساعة بينه وبين حنظل تحت الماء؛ فقلت له : بالله يا سيدي كيف نجوت؟

فنظر إليَّ نظرة الحنان، وأجاب : أخفتَ عليَّ أن أغرق يا سندباد؟ نحن حيتان البر يا سندباد، فلا تُغرقنا أمواج البحر!

قلت : ولكن كيف نجوت وسبقتني إلى ذلك المكان؟

قال : إنني لم أكد أطمئن إلى نجاتك حتى أفلتُّ، من قبضة حنظل ثم أخذت أسبح تحت الماء متجهًا إلى حيث كان أصحابنا، وتركتُ حنظل يسبح في اتجاهك؛ إذ كان الحصول على الكنز كلَّ همه . . .

قلت : هل كان يتبعني؟

قال : نعم، ولكنه فَقد أثرك لأنك وقفت طويلًا على الشاطئ، ثم اتخذت طريقًا غير طريقه؛ فنجوتَ ونجا كنزك.

قلت : إنه كنزك يا سيدى؛ فقد كدت تبذل في سبيله روحك!

قال : صَهْ، لا أريد أن يسمعك أحدٌ تقول هذا . . .

وكنا قد وصلنا في تلك اللحظة؛ فرفع أبو الإسعاد مجدافه من الماء وتهيَّأنا لمغادرة الزورق إلى البر . . .

ثم أخذنا طريقنا إلى فندق سندباد . . .

وقضينا ليلتنا بالفندق، وكان نومنا عميقًا ولكنه مزدحم بالأحلام فلما أشرق الصبح تهيَّأنا للرحيل؛ إذ كان بقاؤنا بعد اليوم في هذه المدينة محفوفًا بالمخاطر!

قال أبو الإسعاد : أتتركوني لهذه المخاطر وحدي وتذهبوا؟

قال الشيخ : بل تصحبنا إلى تمام رحلتنا إن أردت . . .

قال أبو الإسعاد : قد أردت فهيَّا . . .

" لقد نجونا من شر تلك المدينة الملعونة، ومن كيد حنظل وأشرس وظفرنا بالكنز؛ فلنذهب إلى حيث يشاء الله، مبتعدين عن تلك المدينة وما فيها ومن فيها؛ فليس بنا حاجة إلى البقاء بها بعد اليوم . . ."

قال الشيخ هذا؛ فقلت له : ولكن لي في المدينة فندقًا مشهورًا باسمي، اشتريته بمالي، وبذلتُ في العناية به كل جهدي؛ فلمن أتركه بعدي؟

قال ضاحكًا : يكفيك أن يبقى اسمك في المدينة منقوشًا على مدخل ذلك الفندق، ليكون تذكارًا للأيام التعسة التي قضيتها في المدينة؛ وقد حصلت من هذا الكنز على أكثر ممن دفعتَ ثمنًا لذلك الفندق فاتركه لصاحبه ولا تكن طماعًا !

وكان بودِّي أن أبقى في المدينة أيامًا حتى أودِّع من عرفت فيها من الأصحاب، وأسوِّي ما كان بيني وبين بعض أهلها من الحساب، ولكني انقدت للشيخ طائعًا.

وكان المركب الكبير مرسيًا على الشاطئ، فركبناه، ثم حللنا قلوعه وأدرنا دفَّته، فانطلق بنا في عرض البحر سريعًا؛ إذ كانت الريح مساعدةً والجو صحوًا، فما هي إلا ساعة وبعض ساعة حتى ابتعد الشاطئ عن عيوننا جميعًا فما نرى إلا الماء والسماء . . .

ولم أكد أملأ صدري من نسيم البحر العليل، حتى ثقلت جفوني وغلبني النوم، فاستلقيت في مكاني ورحت في نوم عميق . . ...

واستيقظتُ قُبيل العصر منشرح الصدر، فاستويتُ جالسًا بين أصحابي، ثم قلت : ألا نأكل؟ فإنني أشعر بجوعٍ شديد!

فأجابني الشيخ : بلى سنأكل جميعًا؛ وسيكون طعامنا شهيًا هنيئًا!

ثم أشار إلى بعض أصحابنا فقاموا، ثم عادوا وبين أيديهم طعام، فابتدرْنا إليه جميعًا ونحن نمرح ونضحك؛ وكان كما قال الشيخ طعامًا شهيًّا هنيئًا . . .

فلما فرغنا من الطعام غسلنا أيدينا من ماء البحر، ثم استدرنا حلقة نتبادل الأحاديث والذكريات حتى مالت الشمس للغروب، فانتصب الشيخ وافقًا، ثم أظل عينيه بكفه وهو ينظر نحو الأفق، وعاد إلينا يقول : إذا ظلت الريح في اعتدالها فإننا سنصل إلى جزيرة النسانيس قبل ظهر الغد!

قلت : جزيرة النسانيس؟ وما حاجتنا إلى النسانيس وجزيرة النسانيس؟

قال : لا حاجة بنا إليها، ولكن بها إلينا حاجة لن تنالها!

فقلقت وقلت : وأي حاجة للنسانيس عندنا ؟

فالتفت الشيخ إلى أحد أصحابنا وقال له حدِّثه يا باقر . . .

7

جزيرة النسانيس . . .

قال سندباد :

نظرتُ إلى باقر، فإذا وجهه أصفر مثل الكُرْكم، فزاد بي القلق وقلت : إنني لا أكاد أفهم ما أسمع، لقد رأيت بعض النسانيس خلال بعض الرحلات؛ فرأيتها نوعًا من الحيوان يشبه القرود، ولكنها أصغر حجمًا وأقل حيلةً وأكثر حركة؛ وبعض الناس يقتنونها في بيوتهم كما تُقتنى الكلاب والقطط، فيجدون في اقتنائها أنسًا . . .

قال الشيخ : إن النسانيس نوع من الخَلْق غير ما تصف يا سندباد . . .

فقال بعض أصحابنا : بل هي نوع ممسوخ من البَشَر!

قال باقر : بل هي نوع ممسوخ من الشياطين، عليها اللعنة!

ومضى باقر في حديثه يقول : لم أكن أعرف من النسانيس إلا ذلك النوع الذي يصفه سندباد، ولم يخطر ببالي أن هناك نوعًا آخر من الخلق اسمه النسانيس كذلك، حتى رمت بي المقادير إلى تلك الجزيرة وحيدًا، بلا زاد ولا متاع ولا سلاح أدفع به عن نفسي الأذى؛ وكنت أركب سفينةً ضلت طريقها بين الأمواج، ثم عصفتْ بها العواصف فانقلبتْ بمن فيها من الركاب، فأخذتُ أسبح على غير هدًى حتى بلغت اليابسة، فحمدت الله على سلامتي، وجلست على الشاطئ أستريح برهة، وإذا شيء لا هو من الناس ولا من الحيوان يَمْثُل بين يدىَّ ويقترب منى، فارتعبت رعبًا لم أرتعب مثله في حياتي، ولم يكن سبب رعبي إلا منظر هذا المخلوق الماثل أمامي . . .

كان شيئًا طويلًا نحيلًا مبطوطًا كأنه شقٌّ نخلة، له عين واحدة في جبهته، ويد واحدة في أعلاه، ورجل واحدة في أدناه، وعلى رأسه المبطوط شعر كريش الهدهد؛ أما فمه فكان مشقوقًا من أعلى إلى أسفل؛ وكان مشيه عجبًا، فهو يخطو كأنه يثب؛ وكانت قدمه كخف البعير: عريضةً مفلطحةً ليس فيها أصبع ولا حافر؛ كأنه واقف فوقها على قاعدة تمثال . . .

فلما وقعت عليه عيني، تخيَّلت إنسانًا قد انشق فلقتين فهذا فلقةٌ منه؛ ثم رأيته يقترب منى ويفتح فمه المشقوق من أعلى إلى أسفل؛ فاستعذتُ بالله من الشيطان الرجيم وسألته السلامة؛ ثم أخذت أزحف إلى الوراء مبتعدًا عنه، فلما أحس حركتي وثب وثبةً فصار ظلُّه علىَّ؛ فأفلتْ من بين شفتيَّ صرخة رعب، فما كان أشد دهشتي حين رأيت له أذنين في جانبي وجهه تتحركان كما يتحرك جناحا الطائر؛ ولم أكن قد لحظتُ من قبل هاتين الأذنين، فعجبت وقلت لنفسي: ما أعجب هذا! إنَّ كل شيء فيه مفرد، من يد، ورجْل، وعين، إلا الأذنين فإنهما اثنتان؛ فلماذا؟ وهل هو إنسٌ أو جنّيٌ أو حيوانٌ وحشيّ؟

وكان لم يزل واقفًا أمامي وأذناه تتحركان، ثم وقفتْ أذناه عن الحركة، وانفتح الفم المشقوق في وجهه؛ وسمعت صوتًا غريبًا آتيًا من ناحيته يقول لي: بماذا تحدِّث نفسك!

فعلمتُ أنه صوته؛ فازداد عجبي، وقلت له : قل لي بالله أأنت شيطانٌ من الجن أو وحش من الحيوان أو أنسيٌّ من الناس ؟

فسمعته يقول : لست شيطانًا ولا وحشًا ولا إنسيًّا؛ أنا النسناس!

قلت : ماذا ؟ إنني أعرف النسانيس، وهى أخت القرود الصغيرة!

فسمعتُ قهقهةً عالية، ثم رأيته يثب نحوي؛ فهببتُ واقفًا لأهرب من وجهه، ولكني لم أكد أخطو خطوتين حتى امتلأ المكان حولي بطائفةٍ من النسانيس أمثاله؛ لكل منهم عينٌ واحدة، ويد

واحدة، ورجْل واحدة، وأذنان تتحركان في جوانب وجوههم مثل أجنحة الطير؛ فلم أجد مهربًا منهم، ووقفت بينهم خائفًا مرعوبًا، تنبض كل عضلة في جسمي من شدة الخوف؛ فاستدروا حولي كالحلقة ثم اقترب منى أحدهم وشدَّني من ذراعي. ثم مضى بي إلى حيث لا أدرى، وقد سبقَنا منهم جماعة وتأخر عنا جماعة، وأنا من شدة الخوف لا أكاد أقدر على المشي . . .

وما زالوا يمشون بي حتى وصلنا إلى ساحة واسعة قد بُنيتْ في وسطها دار، فقادوني إليها، فعلمت أنها دار رئيسهم؛ ولم يكن لتلك الدار باب كأبواب دورنا، ولكن في جدارها شقًّا مستطيلًا لا يزيد عرضه على شبر وبعض شبر؛ فلم يخطر ببالي أن ذلك الشق المستطيل الضيِّق هو باب الدار إلا حين رأيتهم يتجهون نحوه ليدخلوا،

فدخل منهم من دخل بغير عناء، لأن أجسامهم مبطوطة لا يزيد عرضها على الشبر؛ ثم جاء دوري لأدخل؛ ولم يكن يخطر ببالهم أن ذلك الباب يضيق عن جسمي، فدفعوني إليه دفعًا بقوة، فدخلت بكتف وذارع، ثم انحشر بطني فلم ينفذ، وامتنع عليَّ الدخول؛ فحسبوني ممتنعًا بإرادتي، فأخذوا يدفعونني بعنف وغلظة؛ فازددتُ حَشْرةً في الباب حتى كادت روحي تزهق، ولكنَّ جسمي لم ينفذ، فلما رأوني كذلك كفُّوا عن دفعي بأيديهم ووقفوا يتشاورون في أمري . . .

ثم أخذوا يجذبونني من ذارعي ليُخرجوا ما دخل من جسمي؛ فلم أستطع أن أخرج ولم يستطيعوا إخراجي؛ وكان الذين في الداخل لا يعرفون أنَّ الذين في الخارج يجذبونني، فاستمروا يجذبونني؛ وهكذا وقفت في ذلك المضيق بين قوتين تتجاذباني : قوة في الداخل تجذبني من ذارع لأدخل وقوة في الخارج تجذبني من ذراع لأخرج، وأنا محشور الجسم لا أملك دخولًا ولا خروجًا ولا صوتًا ولا حركة؛ ثم لم ألبث أن فقدت وعيي من شدة آلام الجذْب. . .

ثم أفقت فرأيتني محشورًا حيث كنت، وقد كفُّوا عن جذبي وتركوني . . .

فلما أيقنتُ إنني وحيد في المكان، أرهفتُ أذنيَّ، فلم أحس حولي حركةً ولا صوتًا؛ فأيقنت أنهم في مكان بعيد، وعاودني الأمل في النجاة؛ فقدحتُ زناد فكرى لأستنبط حيلةً أخلص بها من هذا الضيق . . .

وشعرت بقرصة مؤلمة في ساقي فهممت أن أحك مكان تلك القرصة؛ فلم تصل إليه ذارعي؛ ولكني تنبهتُ إلى أن ذراعيَّ مطلقتان، فأخذت أحفر بأظفار يديَّ في الجدار الذي يضغط على بطني، لعلي أستطيع أن أنزع منه حجرًا أو أحجارًا فأوسِّع لنفسي؛ وما هي إلا لحظات حتى استطعت أن أنزع حجرًا ثم حجرًا ثانيًا. . .

وخف الضغط على بطني، فازددت نشاطًا وقوة، ونزعت حجرًا ثالثًا، فاستطعت أن أتحرك؛ ولكني لم أكد أخرج بجسمي من المضيق حتى انهار جانب من الجدار؛ فأسرعت بالابتعاد قبل أن ينقض البناء كله على رأسي فيقتلني!

وكان لانهيار الجدار صوتٌ شديد سمعه النسانيس من بعيد، فأسرعوا إليَّ ليروا ماذا جرى، ولكن الغبار الكثيف كان يواريني عنهم، وكانوا مندفعين بسرعة نحو الدار فلم يروني؛ وبذلك أتيحت لي فرصة للهرب؛ ومضيت على وجهي حتى بلغت الشاطئ، ثم وقفت حائرًا لا أدري أين أذهب وليس أمامي إلا البحر . . .

وكنت متعبًا أشد التعب؛ فبذلت جهدي في البحث عن مكانٍ مستورٍ آوي إليه؛ فلم ألبث أن وجدت صخرةً قائمةً على بعد، فقصدت إليها، فوجدت مغارةً، ولكني خفت أن يكون فيها حشرات مؤذية فلم أدخلها، وجلست على بابها، ثم جعلت رأسي بين ركبتيَّ ونمت . . .

ثم استيقظت على صوت ورائي، فنظرت، فإذا شبح يزحف نحوى من داخل المغارة، فقمت مرعوبًا . .

وكان النهار قد أشرق، فلمحت ظلالًا تتحرك فوق الصخرة، فعلمت أن بعض النسانيس جاءوا يبحثون عني في هذا المخبأ؛ ورأيتني بين شرَّين : شر يزحف إليَّ من جوف المغارة، وشر يزحف إليَّ منحدرًا من فوق الصخرة؛ فاستسلمت لقضاء الله!

ولكنَّ الشبح الذي كان يزحف من جوف المغارة لم يتقدم، والظلال التي كانت تتحرَّك فوق الصخرة لم تنتقل عن مكانها؛ فعجبت وقلت لنفسي : لعل كلَّ ذلك كان وهمًا من أوهامي!

وعدتُ إلى مكاني آمنًا بعض الأمان؛ ثم خطر لي أن أخطو خطوتين نحو الشاطئ، لعلي أرى سفينةً على البعد فأشوِّر لها لتنقذني؛ ولكني أحسست في تلك اللحظة حركةً ورائي، فالتفت بسرعة؛ فإذا الشبح يخرج من المغارة متَّجهًا إليَّ وبين يديه صخرة كبيرة لو هوى بها على رأسي لتهشم؛ فاستعددت للدفاع عن نفسي؛ ولكنه لم يكد يراني أنظر إليه حتى ألقى الصخرة وأولاني ظهره هاربًا؛ ولحظت في تلك اللحظة أن له رجلين لا رجلًا واحدة، فصرخت به : قف، لا تتحرك !

فوقف وظهره إليَّ، فعلمت أنه خائف منِّي، وشجَّعني هذا على التقدم إليه، فلما دنوت منه رأيت جسده كله يرتعد من شدة الخوف، فوضعت يدي على كتفه قائلًا : أنظر إليَّ . . .

فاستدار إليَّ وهو يرتعد، فلما التقت أعيننا زال كل ما كان في نفسى من الخوف، وزال كل ما كان في نفسه كذلك؛ ورأيت شفتيه تتحركان ولكني لا أسمع له صوتًا؛ فقلت له: أنت لستَ نسناسًا!

وكأنما كان في نفسه بقية من شك، فلما سمعني أقول : " أنا باقر ولست نسناسًا؛ فمن أنت؟ وماذا جاء بك إلى هذه الأرض ؟ "

عاد إليه الاطمئنان، وانحلَّت عقدة لسانه، ثم أخذ يروي قصته . . .

وكان إنسانًا مثلي، قذفتْه الريح بسفينته إلى ذلك الشاطئ ومعه بعض الملاحين من زملائه، فما كادوا يخطون على الأرض بعض خطوات حتى ظهر لهم النسانيس فقبضوا عليهم وقادوهم إلى رئيسهم كما قادوني؛ فأخذ الرئيس يسألهم عن أنفسهم، وعن بلدهم، والسبب الذي جاءوا من أجله إلى أرض النسانيس؛ ثم أمر بهم فسُحبوا على وجوههم إلى غرفة مظلمة فحُبسوا فيها ثلاثة أيام؛ والنسانيس يقدمون إليهم الطعام والشراب ويكرمونهم كل الإكرام؛ فلما كان اليوم الرابع جاء نسناس فصحب واحدًا منهم فذهب به ثم لم يعد، وجاء في اليوم الثاني فصحب رجلًا ثانيًا فذهب به ثم لم يعد كذلك، وهكذا صار يفعل كل يوم، حتى لم يبق إلا رجلان؛ فقال أحدهما للآخر : " يا ترى أين يذهبون بأصحابنا " ؟ فقال الآخر " لا أدري" ! وكان في الغرفة نافذة عالية، فحمل أحدهما الآخر إلى النافذة فنظر منها فإذا النسانيس ملتفُّون حول صاحبهما الذي أخذه النسانيس منذ ساعة وقد همُّوا بذبحه ليأكلوه؛ فلما رأى الرجل هذا المنظر عرف أن آخرته وآخرة صاحبه مثل هذه الآخرة، فاتفقا على الهرب قبل أن يأكلهما النسانيس؛ وساعدهما الحظ فهربا، واتخذا طريقهما إلى الشاطئ؛ ولكن النسانيس؛ أدركوهما فقبضوا على أحدهما وهرب الآخر، فلجأ إلى هذه المغارة وعاش فيها أربعة أشهر قبل أن يراني . . .

واستمر باقر يحكي، فقال : تعجبتُ من قصة ذلك الرجل وقلت له : وكيف استطعت أن تعيش أربعة أشهرٍ في هذه المغارة ؟ ومن أين كنت تأكل وتشرب ؟ وكيف كنت تنام ؟

فقال لي: كنت أظن أنني لن أعيش في هذه المغارة أكثر من يوم أو يومين، ثم أهتدي إلى طريقة أهرب بها من الجزيرة؛ ولكن الأيام مضت متتابعةً ولم أهتد إلى طريقة للهرب، ولم أر في تلك المدة كلها إنسانًا غيرك؛ أما الطعام والشراب فقد يسَّرهما الله لي، إذ عثرت بعد يومين على مورد رزق عظيم، يكفيني، ويكفي عشرةً معي، شرَّ الجوع والظمأ؛ فهل أنت جائع فأطعمك، أو ظامئٌ فأسقيك ؟

وكنت لم آكل شيئًا منذ أمس، فقلت له : إنني جائعٌ وظمآن!

فقال لي: إذا صبرتَ إلى الليل صحبتُك إلى حيث تجد كفايتك من الطعام والشراب!

فقلت : ظننتك تستطيع أن تجيئني الآن بطعام وشراب !

فتردد برهة ثم قال : لعلي أستطيع الآن، فاصحبني وخذ حذرك؛ فإني لم أتعوَّد الخروج إلى ذلك المكان في نور النهار . . .

وكنتُ أظن أنه سيقودني إلى باب المغارة، ولكنى رأيته يقودني إلى داخلها، فشككتُ في أمره، وخشيت أن تكون حيلةً يحتال بها عليَّ ليقودني إلى هلاكي؛ ولكني اصطنعتُ الشجاعة ومشيت وراءه على حذر . . .

وظللت أمشى وراءه في ظلام المغارة إلى داخلها العميق؛ فما كان أشد دهشتي إذ أحسست نسيمًا لطيفًا يهبُّ على وجهي فينعشني، ثم رأيتُ شعاعًا من نور؛ فأيقنتُ أن للمغارة بابًا آخر يؤدى إلى فضاء؛ وكان يقيني صادقًا، فلم نلبث أن وصلنا إلى آخر المغارة، فإذا هي تنتهي إلى فضاءٍ فسيح مُشمس، قد نبتت فيه بعضُ الأعشاب وانتصبت بعضُ الأشجار وقد تساقطت

تحتها ثمرات ناضجة، فالتقط صاحبي ثمرةً منها ثم قشَّرَها وقدَّمها إليَّ؛ ثم التقط ثمرةً أخرى وقشَّرها وأخذ يقضمها، فأهويتُ على ثمرتي بأسناني، فإذا لها طعمٌ لذيذ ومذاق حلو لم أجد مثله في ثمرة من الثمار . . .

وكان صاحبي قد أكل ثمرته كلها وألقى بذرتها، فانحنى على الأرض ليلتقط ثمرةً أخرى، ولكنه لم يكد يفعل حتى سمعنا صيحةً شديدة، فارتعبنا وتسمَّرت أرجلنا في الأرض، ومال عليَّ الرجل هامسًا : " قد رأونا " ! فارتعبت ووليتُ وجهي مسرعًا نحو المغارة وهو يتبعني؛ ولكني سمعت صيحةً أخرى ورائي، وسقطة جسم على الأرض؛ فنظرتُ ورائي بلا وعي، فإذا صاحبي مُلقًى على الأرض وبين كتفيه سهمٌ مغروز؛ فأسرعت إلى باب المغارة فاحتواني ظلامها، وابتعدتْ عني الأصوات والأصداء، فوقفت في مكاني كالتمثال لا أدري أين أذهب، ولا ماذا أفعل؛ ثم عاد إليَّ رشدي، فكأنما سمعت صوت صاحبي يستنجد بي فمضيتُ لنجدته دون أن أفكر في أمر نفسى؛ ولكني لم أكد أقترب من الباب حتى وقفت مترددًا، ثم عدتُ من حيث أتيت!

وانتهى النهار، ومضى الليل كله وأشرق صبح جديد، قبل أن أجمع نيتي على المخاطرة لإنقاذه؛ فلما وصلت إلى حيث كان، لم أجده ولم أجد أحدًا غيره؛ ولكني وجدت عظامًا مبعثرة، فعلمتُ أنهم أكلوه. . .

رحمة الله عليه، ذلك الرجل الكريم الذي صحبتُه يومًا واحدًا من حياته، ولم أعرف اسمه ولا وطنه ولا أهله؛ وبذل عمره – مع ذلك – في سبيل إكرامي!

قال باقر : ثم عثرت على بعض مخلفَّات الرجل في المغارة، فعرفت أن اسمه شهبندر . . .

8

مغامرة في الجزيرة !

قال سندباد :

لم يكد " باقر " يلفظ اسم " شهبندر " حتى طار عقلي من رأسي؛ إذا اعتقدت أن الرجل الذي أكله النسانيس هو أبي . . .

وتمنيت في تلك اللحظة لو أنَّ أمواج البحر قذفتنْا إلى جزيرة النسانيس، لأطأ بقدميَّ الأرض التي عاش فيها أبي آخر أيام حياته . . .

وكان الشيخ، وباقر، وسائر زملائنا في المركب، يحاولون تهدئتي فلا أهدأ؛ إذ كنت كالمجنون من شدة ما نالني من الغم . . .

ثم حدث شيء مفاجئ، فردَّني إلى وعيي، وصرفني عن كل ما كنت أفكر فيه، وصرف أصحابي جميعًا عني ليشتغلوا بأمر أنفسهم؛ فقد غامت السماء فجأةً وهبط مطر غزير، ثم برق البرق ورعد الرعد وأظلمت الدنيا وارتفع الموج عاليًا كالجبال: فمال المركب بنا ثم اعتدل، وأخذت الأمواج تتقاذفه صاعدًا وهابطًا ومائلًا ومعتدلًا، ونحن فوقه كحبات القمح في الغربال، لا نكاد نمسك أنفسنا أو نثبت في موضع . . .

وصاح الشيخ : يا حفيظ يا رب ! هذا شيء لم أر مثله في حياتي!

فسمعت باقرًا يقول : لقد حدث لنا مثل هذا حين انكسر مركبنا بالقرب من جزيرة النسانيس!

وانقضَّت هذه الكلمة على رءوس أصحابنا جميعًا مثل انقضاض الصاعقة، فصاحوا في نفس واحد : جزيرة النسانيس!

ومضت لحظة صمت، والمركب يصعد بنا ثم يهبط، ويميل ثم يعتدل؛ ثم ارتفعت موجة عاتية، فانصبَّت فوق رؤوسنا بقوة، فغرقنا في لُجَّتها؛ فلما فتحتُ عينيَّ بعد لحظة لم أجد المركب تحتي ولم أجد أصحابي، فقد انقلب المركب وقذفنا جميعًا إلى القاع، فأخذتُ أضرب الماء بيديَّ ورجليَّ لأنجو من الغرق، ولكن كل ضربة أضربها كانت تغوص بي تحت الماء؛ فأيقنتُ أن آخرتي قد حانت؛ ولكني لم ألبث أن شعرت بيد تجذبني، فانجذبتُ بلا إرادة، كأنني سمكة في صنَّار صياد، وأغمضتُ عينيَّ مستسلمًا لقضاء الله . . .

وكانت اليد التي امتدت إليَّ هي يد صديقي أبي الإسعاد؛ ولكني لم أعرفه إلا حين بلغ بي الشاطئ سباحةً؛ فلما عرفته شكرته، ثم استدرت نحو البحر لأعرف أين بقية أصحابنا؛ ولكن الأمواج المتدافعة سترتهم عن عيوننا فلم أعرف أيُّهم نجا وأيهُّم ابتلعه البحر؛ فوقفتُ صامتًا حزينًا لا أكاد أجمع شتات فكري . . .

ولحظ أبو الإسعاد صمتي، فقال لي: عُد إلى نفسك يا سندباد، وتعال نفكر في أمرنا، فإننا لا ندري على أي أرض قذفْتنا الأمواج، ومن واجبنا أن نتدبَّر موقفنا ونعرف أين نحن الآن ! فقلت : ألم تسمع حديث باقر ؟ أظننا الآن في جزيرة النسانيس!

صاح أبو الإسعاد وهو يتلفت حواليه مرعوبًا : جزيرة النسانيس؟

وسمعنا في تلك اللحظة وقع أقدام وراءنا فالتصق بي أبو الإسعاد وهو يقول دون أن ينظر وراءه : جاءوا!

فنظرت إلى الوراء، ولكنى لم أر النسانيس الذين كان يصفهم باقر، بل رأيت باقرًا نفسه، فأسرعت إليه صائحًا : باقر!

فوضع أصبعه على فمه وقال هامسًا : صَهْ، لا أريد أن يسمعونا ! ثم أشار إلينا لنتبعه، فتبعناه صامتين ونحن نتلفتُ حوالينا، وقلوبنا تدق بعنف . . .

على أني لم أكن خائفًا في تلك اللحظة، ولم أكن مطمئنًّا؛ بل كنت في حالة بين الخوف والاطمئنان؛ فقد تذكرتُ وقتئذ أنني أمشي على الأرض التي مشى عليها أبى من قبل، والتي يعيش فيها القتلة الذين أكلوا لحمه وبعثروا عظامه؛ فامتلأ قلبي بالرغبة في الانتقام!

ولم يزل باقر يمشي ونحن نتبعه، حتى بلغ بنا جانبًا مستويًا من الشاطئ، فنظر يمينًا، ثم نظر شمالًا، ثم جلس ودعانا إلى الجلوس، وقال لنا : من هذا المكان المستوى لمحت المركب الذي أنقذني من جزيرة النسانيس، ولم أكن أظن أن المقادير ترميني إليها مرةً أخرى!

ولم يكن في يقيننا إلى هذه اللحظة أننا في جزيرة النسانيس، وإنما كنا نظن ظنًّا؛ فلما قال باقر كلمته عرفنا معرفة اليقين أيَّ خطر يتهددنا؛ ونظرت إلى أبي الإسعاد فرأيت وجهه أصفر كوجوه الموتى . . .

وعاد باقر يقول : خير لنا أن نلجأ إلى مكان نختبئ فيه، لندبر أمرنا ونحتال للخلاص، قبل أن يرانا النسانيس؛ أرى أن نذهب إلى تلك المغارة؛ فإن النسانيس لا يدخلونها . . .

ومشينا وراء باقر حتى وصلنا إلى المغارة؛ فدخل ودخلنا وراءه؛ فلما سترنا ظلام المغارة؛ جلس باقر ودعانا إلى الجلوس معه؛ أما أبو الإسعاد فجلس، وأما أنا فأحسست في نفسي رغبةً

شديدةً في الذهاب إلى آخر المغارة، لعلي أجد هنالك بعض آثار أبي؛ ولحظ باقر ترددي، فقال لي بماذا تحدِّث نفسك يا سندباد ؟

قلت : أريد أن أصل إلى الباب الآخر فأرى ماذا هنالك . . .

فصاح بي : أنت مجنون ! أجلس !

ثم جذبني من ذارعي فأجلسني، واستمر يقول : إنك إذا خرجت في نور النهار وقعت عليك عيون النسانيس، فيقتلونك كما قتلوا شهبندر !

فهاجتني هذه الكلمة، وأفلتُّ من يده مندفعًا إلى داخل المغارة؛ فجرى أبو الإسعاد ورائي وهو يقول : انتظر، لا تذهب وحدك !

ولكني لم أنتظر، فاستمر يجري ورائي ليدركني، أو ليمسكني؛ أما باقر فظل جالسًا حيث كان، ولم يرض أن يخاطر بروحه . .

ولم يلبث أبو الإسعاد أن أدركني، فوضع يده على كتفي قائلًا : أليس من الخير أن نعود إلى مكاننا ولا نرمي بأنفسنا إلى الهلاك ؟!

قلت مغتاظًا : عُد إن شئت، أما أنا فلا بد أن أذهب !

فرفع يده عن كتفي وهو يقول : إذن فلن تذهب وحدك !

ثم مشى ومشيت إلى جانبه صامتين، لا يتحّدث إليَّ ولا أتحدث إليه؛ فقد كان كل منا مشحون الرأس بخواطر وأفكار تمنعه من الكلام؛ أما أنا فكنت مشحونًا بالرغبة في الانتقام من قاتلي أبي، ولومُتُّ في سبيل ذلك؛ وأما أبو الإسعاد فلعله كان مشحون القلب والعقل بالمخاوف، فلولا عطفه ومروءته وحرصه عليَّ لما صحبني في هذه المخاطرة الجريئة . . .

وفجأة صاح أبو الإسعاد: قف لا تتقدم خطوة واحدة !

ثم سقط إلى جانبي وهو يصرخ : آه !

فوقف شعر رأسي وتسمَّرت رجلاي في الأرض، واحتبس صوتي في حلقى لحظة، ثم قلت في صوت خافت : ماذا جرى يا أبا الإسعاد ؟

قال : لا شيء، ولكنى عثرتُ فوقعت فالتَوَت قدمي!

فعاد إليَّ بعض الاطمئنان، وهممت أن أخطو إليه لأنهضه، ولكني لم أتبيَّن مكانه في الظلام، فقلت له: أرفع صوتك لأهتدي إليك !

قال هامسًا : لا أرفع صوتي ولا ترفع صوتك، فإني أخاف أن يسمعونا؛ فقد رأيت ظلالهم تتحرك قريبًا منَّا قبل أن أسقط !

قلت منكرًا : رأيت ظلالهم في هذا الظلام ؟

قال : صه، ولا كلمة !

وكنتُ قد اهتديتُ إلى مكانه بصوته، فخطوتُ إليه حتى صرتُ إلى جانبه، فوضعت يدي على كتفه وأنا أقول هامسًا : ألا تقف ؟

قال : لا أستطيع يا سندباد، وأظن أنَّ في ساقي كسرًا!

قلت : اعتمد عليَّ، فإني لا أحب أن أتركك هنا وحدك !

قال : بل تتركني وتعود إلى باقر لتخبره، ثم . . . . .

وانقطع عن الكلام فجأة، وضغطت أصابعه على ذراعي، ثم همس : أرى ظلالهم قد عادت تتحرك !

فخفق قلبي خفقًا، ودرتُ بعينيَّ فيما حولي؛ ولكني لم أر شيئًا؛ إذ كان الظلام حالكًا؛ فأيقنت أن صاحبي لم ير إلا أوهامه، وقلت ساخرًا : ظلال في الظلام؟ كيف يكون ذلك يا أبا الإسعاد !

وضحكت ولكن يده امتدت إلى فمي لتحبس صوتي فسكتُّ مكرهًا؛ ودرت بعينيَّ فيما حولي أحاول أن أنفذ بهما إلى ما وراء الظلام؛ فمال أبو الإسعاد على أذني هامسًا : مِلْ إلى اليمين درجةً ثم انظر؛ ألست ترى شعاعًا من النور؟ فإني أرى ظلالًا تتحرك في ذلك الشعاع . . .

فملتُ إلى اليمين ونظرت كما أشار، فإذا دائرة مضيئة على حائط المغارة، تشبه الدينار؛ فقلت هامسًا : من أين هذا الضوء ؟

وقبل أن أسمع جواب أبي الإسعاد رأيت ظلالًا تتعاقب على تلك الدائرة المضيئة : تظهر ثم تختفى؛ فأيقنتُ أن أشباحًا تتحرك وراء الثقب المستدير الذي ينفذ منه ذلك الضوء، لا يفصلها عنا إلا قصبات أو أمتار؛ فلم أر من الحكمة أن أجازف بحياتي في تلك اللحظة . . .

وظللنا جالسين ساعة، ونحن نرقب الدائرة المضيئة والظلال التي تتحرك فيها؛ ولكن الضوء لم يلبث أن اختفى، كأنما انسَّد الثقب الذي كان ينفذ منه، فقال أبو الإسعاد : عجبًا ! كيف انتهى النهار هكذا سريعًا ولم يمض علينا منذ دخلنا المغارة إلا ساعة وبعض ساعة ؟

قلت: لعل النهار قصير في هذه المنطقة، فقد سمعت أن الشمس في بعض المناطق لا تُشرق على الناس إلا ساعةً واحدةً ثم تغيب . . .

فضحك أبو الإسعاد ساخرًا وقال لي: من أين لك هذه المعارف العظيمة يا سندباد؟

فغاظني ضحكه وقلت : نعم، وفى بعض المناطق تشرق الشمس على الناس سته أشهر، وتغيب ستة أشهرٍ أخرى . . .

فكفَّ عن الضحك وقال : ولكنَّ ذلك لا يكون يا بنيَّ إلا في المناطق القطبية، ونحن بالقرب من خط الاستواء، حيث يتساوى الليل والنهار !

قلتُ ضاحكًا :لعل النسانيس قد نقلوا قطعةً من القطب إلى خط الاستواء !

ثم هببت واقفًا وقلت : إنني ذاهب لأرى !

فشدَّني من ذارعي وقال : لا تكن أحمقَ يا سندباد؛ فإنَّ الشر ينتظرك هنالك، والويل لك إذا ظهرتَ لهم؛ فإني لأظن أن النهار لم يزل مضيئًا وراء المغارة وإن لم تره أعيننا !

فشددتُ ذراعي لأتخلص منه وقلت : دعني أذهب إليهم؛ فإمَّا انتقمتُ منهم لأبي وإمَّا ألحقوني به؛ فتستريح نفسي على الحالين !

قال : إذن فلابد أن أصحبك. دعني أتوكأ عليك . . .

ثم اعتمد على كتفي ومشى إلى جانبي يحجل برجل واحدة، فقلت له ضاحكًا: إنك – يا أبا الإسعاد– تمشي كالنسانيس على رجلٍ واحدة، فلا تخش أن يروك، فسيظنونك واحدًا منهم !

ثم قهقهت قهقهةً عالية، تردد صداها بين جدران المغارة، فلم ألبث أن سمعتُ همهمةً وأصواتًا؛ فأيقنتُ أن النسانيس قد سمعوني وتلك أصواتهم، فذابت شجاعتي وامتلأ قلبي رعبًا، فلم أستطع أن أخطو خطوةً واحدةً إلى الأمام . .

فقال لي أبو الإسعاد ساخرًا : لماذا وقفت؟ اذهب لتنتقم لأبيك فأثارتني سخريته واندفعت وحدي خارجًا !

وبلغتُ آخر المغارة في خطوتين؛ فما كان أشدَّ دهشتي إذ رأيت نور النهار وراءها ضاحيًا، وكنت أظن الشمس قد غربت؛ فترددت لحظةً، ثم خطوت خطوةً أخرى فخرجت من المغارة إلى الفضاء الفسيح . . .

ورأيت المكان خاليًا وليس به أحد؛ فعاد إليَّ بعض الاطمئنان، ولكني ظللتُ واقفًا في مكاني، لا أجرؤ على خطوة إلى الأمام ولا خطوة إلى الوراء . . .

في هذا المكان المشئوم من هذه الجزيرة الملعونة، قتل النسانيس أبى شهبندر وأكلوا لحمه ورموا عظامه !

9

معركة النسانيس !

قال سندباد :

تلفَّتُّ حواليَّ أبحث عن آثار أبي، ولكني لم أر شيئًا، فقد كان الفضاء حولي خاليًا إلا من تلك الأشجار السامقة وقد تساقطت تحتها الثمرات، فانحنيت على ثمرة منها لألتقطها، ولكني أحسست حركةً ورائي.

فاعتدلت ونظرت، فإذا نسناس يتربص بي على بعد وقد صوب إليَّ سهمًا؛ فوثبتُ مبتعدًا عن مَرمى السهم فنجوت؛ ولكني لم أقنع بالنجاة من ذلك السهم القاتل فهجمتُ على النسناس وقد امتلأت نفسي حقدًا وضغينة . .

وارتميت عليه فألقيته أرضًا، ثم ركبته وجعلت يدي في رقبته لأخنقه، ولكنه مات من المفاجأة قبل أن تضغط يدي على رقبته؛ فنزلتُ عنه ووقفت أنظر وأتسمَّع، فإذا صوتٌ آخر ورائي، فالتفتُّ نحوه، فرأيت أبا الإسعاد قادمًا يتوكأ على نفسه . .

وفجأةً رأيته ينبطح على الأرض كأنما دفعتْه يدٌ من ورائه، ومَرَقَ سهم بجانب أذني فلم يصبه ولم يصبني . . .

وقبل أن أتبيَّن موقفي أو أدرك حقيقة ما حدث، انطلق سهم آخر فطار بعمامتي؛ فانبطحت على وجهي بجانب أبي الإسعاد، وقد أيقنتُ أن فرقةً من النسانيس يصوبون سهامهم إلينا . . .

ثم رأيتهم يبرزون من وراء الشجر متجهين إلينا، فاندفعت نحوهم؛ ولم يكونوا يتوقعون ذلك؛ فاضطربوا ووقع الخلل في صفوفهم وولَّى بعضهم هاربًا، فشجعني ذلك وهجمتُ عليهم؛ فأطلقوا سهامهم من قرب فلم تصبني؛ فولوا ظهورهم وانطلقوا هاربين يحجلون، ووقع بعض ما كانوا يحملون من القسي والسهام؛ فأخذت منها قوسًا، وصوبت سهمًا إلى أحدهم فأصبته، ثم صوَّبتُ سهمًا آخر؛ ولكنهم اختفوا عن عينيَّ قبل أن يصل ذلك السهم، وخلا المكان . . .

فهللتُ فرِحًا، ثم نظرت ورائي وأنا أقول : أرأيت يا أبا الإسعاد؟

ولكن أبا الإسعاد لم يكن ورائي، فقد بقي في مكانه منبطحًا وهو ينظر إليَّ من بعيد حتى اختفيتُ عن عينيه وراء النسانيس؛ فرجعتُ إليه؛ ولكن لم أكد أقترب من مكانه حتى رأيتُ فرقةً أخرى من النسانيس قد أحاطوا به يريدون أن يقيدوه ليذهبوا به؛ فزعقت فيهم من بعيد: قفوا لا تتحركوا . . .

وفاجأهم زعيقي قبل أن ينتبهوا إلى وجودي، فالتفتوا نحوي، ثمَّ شدُّوا أوتار قسيِّهم وسدَّدوا السهام؛ ولكن سهمي كان أسرع إليهم، فسقط منهم نسناس؛ فتشجع أبو الإسعاد وارتمى على المصاب فانتزع قوسه وسهمه ليشارك في المعركة !

وخاف سائر النسانيس ففروا والسهام في ظهورهم، فسقط على الأرض خمسة منهم : أصبت منهم أربعة وأصاب أبو الإسعاد الخامس . . .

هذه النتيجة الباهرة لم تكن في حسابي ولا في حساب أبي الإسعاد ولا في حساب النسانيس؛ وقد تعلمتُ منها حقيقةً عظيمة، هي أن النصر دائمًا حليف الشجاعة، ولا حليف القوة والعدد الجمّ . . .

ونظر إليَّ أبو الإسعاد قائلًا : احذر يا سندباد أن تغتر؛ فنحن وحيدان في هذا المكان، وقد انتصرنا على النسانيس في أول جولة، ولكنهم لن يسكتوا او يكفُّوا عن طلب الثأر، ولابد أن يعودوا . . .

ولم يكد أبو الإسعاد ينتهي من كلمته حتى سمعت حركةً قريبة، فشددتُ وتر القوس واستعددت للرَّمْي؛ فلم أكد ألمح أول شبح مقبل حتى أطلقتُ سهمي، وإذا صراخ يرتفع : آه أدركوني ! لقد أصابني النسانيس !

وعرفت الصوت، فاضطربت اضطرابًا شديدًا ثم اتجهت نحوه؛ وكان " باقر" راقدًا على الأرض والدم ينزف من جرحٍ عميق في صدره . . .

وا أسفاه ! لقد أصبت صديقي بسهمي وكان تَسَرُّعي هو السبب !

وانحنيت عليه قائلًا : أراك بخير يا باقر، فأين أصابك السهم ؟

فنظر إليَّ في انكسار وضعف ثم قال انج بنفسك يا سندباد قبل أن يصيبوك كما أصابوني !

فآلمني هذا القول إيلامًا شديدًا؛ ولكني كظمتُ ألمي وأخذت أمزق الثياب عن موضع الجرح لأعرف أين أصابه السهم؛ فإذا هو قد نفذ من بين أضلاعه إلى تجويف صدره؛ فقلقت وأشتد خوفي على حياته !

وكان السهم لم يزل مرشوقًا في صدره، فنزعته بلطف، ثم وضعتُ منديلي في مكان الإصابة، وأسندته حتى وصلت به إلى المغارة فأرقدته على أرضها ثم قلت له أيمكن أن يكون هنا ماء يا باقر ؟

قال : نعم؛ ولكنى أخاف أن تذهب الآن إلى العين فيروك !

قلت : أريد الماء الآن لأغسل به الجرح.

فأجاب بعد تردد : أذهب واحترس؛ إنَّ العين وراء ذلك الشجر الملتف؛ ولكن المكان لا يخلو من أحدهم في النهار! . . .

فقمت لآتيه بالماء؛ وبحثت عن قوسي وسهمي فلم أجدهما ولم أذكر أين تركتهما؛ فوقفتُ برهة أحاول أن أتذكر؛ فقال لي: أنت خائف يا سندباد، ومن حقك أن تخاف . . . بالله لا تذهب الآن !

فمست كلماته عاطفتي وامتلأت عيناي بالدموع !

هذا الزميل الكريم، أنا رميتُه بسهمي وهو لا يدرى، ويخشى عليَّ أن تصيبني سهام العدو!! يا له من موقفٍ شديد الإيلام للنفس !

وخشيت أن يفضحني اضطراب نفسي؛ فانطلقت مسرعًا ولكني لم أكد لأخرج من المغارة حتى بَاغَتتْني فرقة من النسانيس، فانقضُّوا عليَّ انقضاض الصاعقة، ثم قيَّدوني وحملوني ومضوا بي !

10

النجدة !

قال سندباد :

وقعتُ في أيدي النسانيس، بعد أن قتلتُ منهم طائفة، وانتصرت عليهم في أكثر من معركة؛ فهل أفلت من هذا الأسر وأنجو بروحي أم تكون آخرتي على أيديهم، كما كانت آخرة أبي شهبندر؟

ورأيتني محمولًا بينهم مُقيَّد الحركة لا أستطيع تدبيرًا ولا حيلة، فيئست من حياتي وأيقنت أنها الآخرة! وفجأةً رأيت عقدهم ينتثر وجمعهم يتفرق؛ ورأيتني أسقط على الأرض سقطةً ترضُّ العظم . . .

ولم أعرف في أول الأمر سبب ما حدث، ولكني لم أكد أقف على قدميَّ حتى خمَّنت تخمينًا، فقد رأيت نسناسًا منهم مجندلًا على الأرض وفى ظهره سهمٌ مرشوق، فعرفت أن أحدًا رماه من ورائه بذلك السهم فأصابه، فخافوا وتفرقوا؛ ولكن من الذي رماه فأنقذني من الموت في اللحظة الأخيرة ؟ أهو صديقي أبو الإسعاد ؟ ولكنه كسير مرضوض العظم لا يستطيع أن يقف على قدمين؛ أم هو رفيقي باقر؟ ولكنه جريح ينزف الدم من صدره في المغارة؛ فمن يكون ذلك الرامي ؟

وتلفَّتُّ حواليَّ قلقًا حيران، وقد خطر لي أنَّ رامي السهم نسناسٌ من النسانيس بينه وبين سائرهم عداوة، كما تكون العداوات بين الناس بعضهم وبعض؛ وربما رآهم ذلك النسناس يحملونني

ويذهبون بي فطمع في أن أكون من نصيبه دونهم، فرماهم بسهمه ليأخذني؛ فلا نجاة لي من الموت على الحالين !

كذلك قلتُ لنفسي وأنا أنظر حواليَّ في خوف وقلق وحيرة؛ ولكني لم ألبث أن عدت إلى الاطمئنان حين رأيت على البعد شبح إنسان يقترب ولم أتبين صورته من أول نظرة، ولكني لم ألبث أن عرفته؛ إنه شيخ القافلة . . .

يا للحظ السعيد!

إذن فقد نجا الشيخ كما نجونا، وقذفتْه الأمواج كما قذفتنا على ساحل هذه الجزيرة، فجاء في اللحظة الأخيرة لينقذني !

لك الحمد يا ربي!

وأسرعت إلى الشيخ وقلبي يخفق بين ضلوعي فرحًا، فارتميت بين ذراعيه كما يرتمي الطفل بين ذراعي أبيه، فاعتنقني وقبَّل جبيني وخديَّ، ثم سألني : هل نجا معك أحد من أصحابنا يا سندباد !

قلت : نعم، أبو الإسعاد، وباقر؛ ألم ترهما ؟

ثم قُدته إلى أبي الإسعاد، فساعدناه على القيام ومضينا به إلى المغارة، حيث كان باقر راقدًا وقد غُشي عليه من كثرة ما نزف من دمه؛ فأخرج الشيخ من صدره زجاجةً صغيرةً فأنشقه منها، فأفاق من غشيته، ثم دار بعينيه فيما حوله وهو يسأل : أين أنا ؟

قال الشيخ : أنت معنا يا باقر؛ فماذا حدث ؟

قلت وقد عاد إليَّ الشعور بالقلق : دعه بالله يا سيدى، لا تسأله فإن في صدره جرحًا عميقًا، وليس من الخير أن ترهقه بكثرة الحديث!

وتذكرتُ في تلك اللحظة ما كنت أريده قبل أن يفاجئني النسانيس، فهببتُ واقفًا؛ ولكن الشيخ أمسكني قائلًا : أين تذهب يا سندباد ؟

قلت : أريد ماءً لأغسل له جرحه . . .

قال الشيخ : لسنا في حاجة إلى ماء، معي بعض السوائل المطهِّرة.

ثم مد يده إلى صدره فأخرج زجاجةً، وزجاجةً أخرى، ثم زجاجةً ثالثة؛ ضحكت قائلًا : أرى في جيبك يا سيدنا صيدليةً كاملة . . .

قال : نعم؛ ولابد لكل رحَّالة من صيدلية كاملة . . .

ثم شمَّ بعض الزجاجات وقطر منها سائلًا على جرح باقر، ثم فك عمامته وأخذ يمسح بطرفها ما حول الجرح من الدم المتجمد، وهو يتحسس بأصبعه في الظلام وضع الإصابة؛ فقال أبو الإسعاد : لو كان معنا الساعة مصباح كهربيّ!

فضربت يدى في جيبي أتحسس مصباحي، ثم أخرجته فنوَّرتُ به ،فصاح الشيخ فرحًا : هذا حسن!

ثم أخذ يفحص عن الجرح ويجعل عليه بعض العقاقير، ثم حشاه بجزء من لوثة العمامة، ثم ربطه، ثم أرقد الجريح على أرض المغارة وقال له : أراك بخير يا باقر، ولكن عليك أن تلزم مكانك فلا تتحرك حتى يلتئم الجرح !

ثم نظر إلى قائلًا : أطفئ مصباحك يا سندباد، فليس من المصلحة أن يبقى منيرًا؛ ثم أخبرني بكل ما حدث بينكم وبين النسانيس !

قال أبو الإسعاد : لقد قتل منهم سندباد عددًا غير قليل!

قال الشيخ : لقد خمَّنتُ هذا حين رأيت بعض قتلاهم، ولكن كيف أصابوك وأصابوا باقرًا معك يا أبا الإسعاد ؟

قال أبو الإسعاد : بل أصابوا باقرًا وحده أما أنا فقد وقعتُ فانكسرت رجلي ولم يصبني أحدٌ منهم . . .

وشعرتُ بوخز الضمير في تلك اللحظة، وهممتُ بأن أعترف للشيخ؛ ولكني خشيت أن يسمع باقر فيتألم، فتزداد حالته سوءًا؛ فسكتُّ.

وسكت الشيخ وأبو الإسعاد مثلي؛ فقد أحسا في تلك اللحظة خطرًا يقترب؛ إذا كانت فرقة من النسانيس على باب المغارة تتهيأ لاقتحامها . . .

لم نلبث أن سمعنا وقع أقدام فعرفنا أن بعض النسانيس قد دخلوا ..

ورأينا الشَّرَّ يقترب منا ونحن محصورون في تلك المغارة المظلمة لا نملك دفاعًا عن أنفسنا. . .

وظلت الأصوات تقترب حتى لم يبق بيننا وبينهم إلا القليل، ونحن في حيرة من أمرنا، لا ندرى كيف ندفع عن أنفسنا، ومعنا جريحان لا يستطيعان المقاومة ولا الفرار، ولكن الأصوات لم تلبث أن هدأت، كأنما بدا للنسانيس أن يعودوا من حيث أتوا؛ وقوي هذا الظن في نفسي حين طال الصمت، فرأيتني أضع يدي في جيبي وأخرج مصباحي فأشعله وأرسل نوره؛ فلم أكد أنظر حتى

امتلأت نفسي ذعرًا؛ إذ رأيت بضعة نسانيس قد أسندوا ظهروهم إلى حائط المغارة صامتين، ينتظرون أن نتحرك حركةً يعرفون بها مكاننا؛ فلم يكد نور المصباح يقع على وجوههم حتى صرخوا، فارتعشت يدي وسقط منها المصباح على الأرض . . .

وسمعت في تلك اللحظة حركةً عنيفة، كأن جيشًا جمَّ العدد يهجم علينا، فانهارت عزيمتي وأيقنت بالموت؛ ولكني لم ألبث أن رأيت المصباح المُلقى على الأرض يرتفع ويرسل شعاعه مرةً أخرى إلى بعيد فما كان أشد دهشتي إذ رأيت النسانيس يثبون نحو الباب هاربين . . .

وكان الشيخ هو الذي التقط المصباح حين سقط من يدي وأرسل شعاعه إليهم، فلما رآهم يتواثبون هاربين نظر إليَّ ضاحكًا وهو يقول :

اتبعني، لندركهم قبل أن يفرُّوا !

واندفع نحو باب المغارة واندفعتُ وراءه، ولكني وقعت متعثِّرًا في جسد نسناس منهم، وكان قد وقع على الأرض فداسوه وانطلقوا هاربين، لا يفكر أحد منهم إلا في نفسه؛ وأحس الشيخ بوقعتي فهتف بي : انهض، انظر في ضوء المصباح لئلا تقع وقعةً أخرى !

وكان وراء المغارة فرقة أخرى من النسانيس ينتظرون أصحابهم فلم يكادوا يرونهم قادمين عليهم مرعوبين حتى فروا مرعوبين مثلهم، ونحن من ورائهم جميعًا . . .

ورأيت سهمي وقوسي على الأرض عند باب المغارة، فالتقطتهما وصوبتُ إليهم سهمًا، ووتَّر الشيخ قوسه مثلي وصوَّب، فسقط اثنان منهم قتيلين، ثم سقط اثنان آخران؛ فأخذوا يجدُّون في الهرب ونحن نجدُّ وراءهم في المطاردة . . .

11

أمير النسانيس !

قال سندباد :

استمر النسانيس يجرون ونحن في أثرهم لا نكف عن الرمي، وصعدوا تلًا فصعدنا وراءهم، ثم انحدروا إلى سهلٍ فانحدرنا، فإذا مئات منهم متجمِّعون في حلقة، وفي وسط الحلقة مجلس، وفى صدر المجلس نسناس منهم له وقار وهيبة واحترام؛ فلما وقع عليه نظر الشيخ قال لي: إن صح ظني يا سندباد فهذا أميرهم، فصوب إليه سهمك!

ثم صوب سهمه وصوبت؛ وكان الهاربون ما يزالون يجرون، لم يصلوا إلى تلك الحلقة بعد ولم يُخبروا أحدًا بما رأوا من الويل . . .

وأطلقنا ولكنَّ السهمين أخطآ الهدف، فلم يصيبا الأمير وأصابا اثنين من بطانته؛ فهاج الجميع وماجوا، واتجهوا بأنظارهم إلينا ولكن أنظارهم وقعت على الهاربين قبل أن تقع علينا، ثم رأونا، فوثبوا إلينا كأنما يطيرون طيرانًا، فقلت لنفسي؛ جاء الشر الأكبر!

واستدرت على عقبي لأهرب؛ ولكن الشيخ صاح بي غاضبًا اثبت واضرب؛ لابد أن نُبيدهم !

ثم صوَّب سهمه، وأطعته فصوَّبت سهمي، وأصابت رميته ورميتي معًا، ولكن رميته كانت أفدح إصابةً؛ فقد أصابت صدر الأمير . . .

وكنت أظن أنهم سيهجمون علينا ثائرين إذا رأوا أميرهم قتيلًا، ولكنهم لم يهجموا . . .

وكان الشيخ يظن أنهم سيفرون مخذولين إذا رأوه قتيلا، ولكنهم لم يفرُّوا كذلك . . .

لم يثوروا فيهجموا، ولم يجبنوا فيفرُّوا، بل وقفوا في أماكنهم هادئين برهةً، ثم استداروا حول القتيل حلقة، ثم ركعوا حتى كادت رؤوسهم تمس الأرض، ثم انتصبوا كما يقوم عود من القصب مالت به الريح، ثم ارتفع بينهم صوت رقيق كأنه غناء، ثم امتزجت ألحانهم في نشيد جماعي مؤثر، ثم رأينا اثنين منهم يتجهان نحونا وقد انحنى رأساهما إلى الأرض . . .

حدث كل هذا ونحن ننظر إليهم صامتين، ولا نكاد نفهم لتلك الحركات معنى . . .

فلما رأيت ذينك النسناسين يتجهان نحونا، عاودني الخوف بعد اطمئنان، فهممت أن أجري؛ ولكن الشيخ أمسك بي قائلًا: انتظر ولا تخف !

فانتظرتُ والخوف يملأ نفسي؛ فلولا حرصي على طاعة الشيخ لفررتُ وتركته . . .

ثم لم يلبث النسناسان أن وصلا إلينا، فانحنيا بين أيدينا باحترام، ثم استقام عودهما وظلا صامتين برهة، ثم نطقا، لم أفهم من منطقهما حرفًا، ولكن الشيخ فهم قولهما على ما أظن، فقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة؛ ثم قال لي: انا أمير النسانيس منذ الساعة يا سندباد !

فلم أفهم مغزى كلامه، ولكني لم أجد فرصةً لأستوضحه، فقد أشار إلى النسناسين فسبقانا على الطريق، ومشينا وراءهما إلى حيث كان الأمير القتيل ملقى على الأرض .

وقال لي الشيخ ونحن نسير وراء النسناسين : لقد فهمتُ هذا منذ رأيتهما قادمين نحونا !

قلت مستوضحًا : ماذا فهمت ؟

قال : إنَّ من عادات بعض الشعوب الهمجية إذا قُتل أميرها؛ أن تدين لقاتله بالولاء وتجعله أميرها!

واسترسل يقول ضاحكًا : فأنا أمير النسانيس منذ الساعة، فاحسب حسابي إن كنتَ تريد النجاة بنفسك يا سندباد !

قلت : فأنا أحسب حسابك قبل أن تكون أميرًا، أما الآن . . .

قال : أما الآن فإنك لابد أن تكون أدق حسابًا وأكثر طاعة، وإلا خلعتُ نفسي وزعمتُ لهم أنك قاتل أميرهم، لتكون أمير النسانيس !

وكنا قد وصلنا إلى الحلقة، فانفرج النسانيس صفين وفسحوا لنا بينهما طريقًا، وقد حنو رؤوسهم احترامًا، فمشينا بين الصفين حتى وصلنا إلى حيث كانت جُثَّة الأمير القتيل، فانحنى عليه اثنان منهم فخلعا عنه جبته وتاجه، ثم جعلوهما على جسم الشيخ، ووضعوا في يده عصًا ذات شعبتين، هي صوَلجان الأمير؛ ثم استداروا حولنا راكعين وهم يرددون نشيدًا حماسيًا لم أفهم منه كلمةً ولكني أحسست معناه . . .

وكانت تلك الحركات وذاك النشيد هي كل مراسم التولية؛ فلما فرغوا منها، انفرجت الدائرة صفين كما كانت وانفسح بينهما طريق فمشينا فيه وقد خمَّنت أنهم ذاهبون بنا إلى قصر الإمارة !

وكان تخميني صحيحًا، فلم نلبث أن وصلنا إلى بناء كالذي وصفه باقر، فهمست في أذن الشيخ: من أي أبواب القصر تدخل يا أمير ؟

قال : ماذا تعنى ؟

قلت : إن باب القصر – كما علمت – لا يمكن أن يتسع لك، فاحسب حسابك قبل أن تتحشر في الباب مثل حَشْرة باقر !

فهز رأسه قائلًا : صدقت، وإنك منذ الآن لجدير بأن تكون وزير الأمير ومستشاره؛ فبماذا تشير يا وزير النسانيس؟

قلت ضاحكًا : إن وزيرك لا يشير عليك بالرأي قبل أن تجلس على عرشك !

قال : فليكن عرشي هنا، في هذا الفضاء الفسيح !

ثم وقف ورفع العصا ذات الشعبتين في يده، فوقف النسانيس وخرُّوا بين يديه ساجدين . . .

ولم يكن الشيخ يعرف ماذا يفعل بعد ذلك ولا ماذا يقول؛ فلما رآهم ساجدين بين يديه قال لي: أراهم لم يسجدوا إلا طاعةً لإشارتي إليهم بالعصا، وما أظنهم يجرؤون على أن يرفعوا رؤوسهم قبل أن آذن لهم؛ فلنتركهم ساجدين ونمضى إلى حيث نشاء، فلن يتبعونا !

قلت : وهل تظن انهم يظلون ساجدين بعد أن نذهب عنهم ؟

أما أنا فلا أظنهم يبقون إلا لحظات، ثم يرفعون رءوسهم وإن لم يُؤذن لهم !

قال : فماذا ترى أن نفعل يا وزير ؟

قلت : إذا كانت إشارة العصا هي الأمر كما ظننت، فأشر إليهم أن ينصرفوا عنا، لنمضي إلى حيث نشاء !

قال : ثم ماذا ؟

قلت : ثم نذهب إلى باقر وأبى الإسعاد، لنتدبر أمرنا جميعًا ونُحكم حيلتنا للخلاص . . .

قال : فلنجرب !

ثم رفع الشيخ عصاه وهتف بالنسانيس قفوا !

فرفعوا رءوسهم، ثم استداروا حوالينا حلقة؛ فمضى إلى جانب من الحلقة ومضيتُ إلى جانبه؛ ثم رفع العصا مرة أخرى فانفرجوا صفين ورؤوسهم ناكسة إلى الأرض، فمشينا بينهم حتى خرجنا إلى الخلاء الفسيح، وأشار الشيخ لهم أن يتبعونا . . .

وكان هذا مخالفًا لما اتفقت عليه مع الشيخ؛ ولكني لم ألبث أن عرفتُ أين يقصد، إذ رأيته يُصعد في الطريق إلى الشاطئ . . .

وارتقى الشيخ صخرةً عاليةً تشرف على الماء، وأشار إليهم حتى تجمَّعوا فوقها، ثم رفع العصا فخرُّوا سُجَّدًا؛ فمال على أذني هامسًا : الآن نستطيع أن نفعل شيئًا لتخليص الدنيا من هذا الجنس الشرير !

ثم انحدر عن الصخرة مسرعًا وانحدرت وراءه حتى هبطنا إلى بطن الوادي . . .

12

آخرة النسانيس !

قال سندباد :

ظل النسانيس ساجدين فوق الصخرة ونحن ننحدر إلى الوادي؛ فلما صرنا عند السَّفح نظرنا وراءنا، فرأيناهم ما يزالون ساجدين، فقال الشيخ : الآن قد صار شعب النسانيس كله فوق الصخرة !

قلت : ماذا تعني؟

قال : لا تُكثر السؤال يا سندباد، واذهب فاجمع حطبًا وخشبًا وعشبًا يابسًا لنجعله حول الصخرة، وأرجو أن يكون معك كبريت !

ففهمتُ قصده وقلت مستنكرًا : أتريد أن نشعل النار حواليهم ؟

فأجابني بغلظة : قد أمرتك؛ فأطع أمري بلا مناقشة !

وقد بدا لي الشيخ في تلك اللحظة غليظًا قاسيًا وحشيَّ المنظر كأنه نسناس من النسانيس لا إنسان من الناس، وكانت العصا في يده تمثل لي منظرًا آخر رأيته منذ لحظات وهو يرفعها فوق رؤوس النسانيس فيمتثلون لإرادته ويخرون ساجدين، فكأنما خُيِّلَ إليه أنه يراني نسناسًا من رعيَّته فلست أملك مثلهم إلا الطاعة، ولكني أبيت أن أطيع وقلت له : اذهب أنت فاجمع الحطب إن شئت لتحرقهم، فإني لا أطيق أن أشارك في هذه الجريمة !

قال : سأذهب وتبقى أنت؛ فإني أخشى لو ذهبنا جميعًا أن يرفعوا رؤوسهم فلا يرونا، فربما بدا لهم أن يتبعونا أو يتمردوا علينا، في كون الشر الذي نخافه !

ثم مضى ليبحث عن الوقود وتركني؛ فنظرت إلى النسانيس وهم ساجدون فوق الصخرة، فخشيت أن يرفعوا رءوسهم كما توقَّع الشيخ فلا يروا أحدًا غيرى، فربما بدا لهم أن يصيبوني بالأذى؛ فامتلأ قلبي رعبًا، وهممت أن أتبعه إلى حيث ذهب، ولكني خشيتُ أن يُشجِّعهم هذا على الشر أكثر مما يشجعهم وجودي وحدي؛ فبقيت حيث كنت، وعيناي معلقتان بهم، وقلبي يخفق خفقًا شديدًا.

ومضت لحظات، ثم حدث ما كنت أحذره، إذ رفعوا رؤوسهم واحدًا بعد واحد، ثم تلفَّتوا حواليهم يبحثون عن الأمير، فلم يروه ورأوني فترددوا برهةً، ثم أخذوا يتواثبون نحوي . . .

يا للشر الفادح ! من أين لي الخلاص من هذا المأزق الخطير؟

كذلك سألتُ نفسي وعيناي زائغتان وأنفاسي متتابعة، وهم يقتربون منِّي وثبةً بعد وثبة، فهممت أن أجري؛ ولكنَّ الشيخ أقبل في تلك اللحظة وهو يحمل على كتفيه حملًا ضخمًا من الحطب والخشب ولحاء الشجر اليابس؛ فلما وصل إلى حيث كنت، ألقى حمله عن كتفيه، ثم جعله كالقوس حول الصخرة، وقال لي: أشعل كبريتًا يا سندباد !

ولم يكن معي كبريت، ولم يخطر ببالي من قبل أنني أحتاج إلى كبريت فأستعد لمثل هذا الموقف؛ ولكن الشيخ لم ييأس، فأمسك حجرين يدقهما ليقدح شرارًا، فلم يلبث العشب الجاف أن اشتعل ثم امتدت ناره إلى ما حواليه، ثم اشتعل الحطب والخشب ولحاء الشجر فإذا الصخرة التي تجمَّع النسانيس فوقها كأنها جزيرة في بحر من النار !

وهبَّت الريح في تلك اللحظة، فزادت النار اشتعالًا وزادت رقعتها اتساعًا، إذ كانت الأرض في ما حوالينا كثيرة العشب اليابس؛ ورأيت النسانيس في تلك اللحظة وهم يتجمعون ثم يتفرقون ثم يتواثبون إلى هنا وهنالك، يريدون أن يخرجوا من نطاق النار الذي يحيط بهم، ولكنهم لا يجدون مخرجًا؛ فأيقنت أن شعب النسانيس لا بد أن يحترق وينجو الناس من شره !

وتذكرت في تلك اللحظة أبى شهبندر وما فعله النسانيس به، فامتلأ قلبي حقدًا عليهم وشماتةً بهم، وتجردت نفسى من كل عوامل الرحمة والعطف . . .

ولكن النار التي أشعلناها لنحرق بها النسانيس لم تلبث أن أحاطت بنا، فإذا نحن في وسطها؛ ذلك لأن الأعشاب اليابسة تحت أقدامنا وفيما حوالينا لم تلبث أن امتدت إليها النار فاشتعلت، ثم اتسع نطاقها فيما حوالينا حتى انحصرنا مثل النسانيس في بحر من النار . . .

وبدا لي في تلك اللحظة أن آخرتنا وآخرتهم واحدة، هي أن نموت جميعًا محترقين بالنار.

ولكن الله لطف بنا، فلم تلبث نار الأعشاب تحت أقدامنا أن انطفأت؛ أما نار الخشب والحطب التي تطوق الصخرة فظلت مشتعلة، والنسانيس فوق الصخرة يتواثبون إلى كل ناحية يحاولون النجاة بأنفسهم من النار المشتعلة فلا يجدون مهربًا . . .

وأيقن النسانيس أنهم من الهالكين، وأن النار لابد أن تأكلهم فلا تترك منهم لحمًا ولا شحمًا ولا عظمًا فتشجَّع بعضهم ووثبوا إلى البحر لينجوا من النار، فابتلعتهم الأمواج وغرقوا؛ وحاول بعضهم أن يخترقوا نطاق النار المشتعلة لينحدروا من فوق الصخرة إلينا، فلم يكادوا يدخلون في اللهب حتى ذابوا ثم اختفوا عن عيوننا؛ وظل الباقون يتواثبون فوق الصخرة يائسين حتى ارتفع الدخان فسترهم عن عيوننا . . .

ثم انطفأت النار، وانقشع الدخان، وصفت السماء؛ وأنا والشيخ واقفان عند السفح ننتظر الخاتمة؛ فلما رأينا النار وانقشاع الدخان وصفاء السماء، أخذنا نتقدم إلى الأمام خطوةً خطوة، على خوف وحذر لنعرف كم مات من النسانيس وكم بقي . . .

وصعدنا فوق الصخرة، فلم نر إلا ترابًا وعظامًا مفحَّمة؛ والحقُّ إنني شعرت في تلك الحظة بانقباض وضيق؛ إذ بدا لي مقدار القسوة التي عاملنا بها ذلك الشعب البائس، ولكني حمدت الله في الوقت ذاته، لأنه خلَّص العالم من شر النسانيس !

وكانت الأرض لم تزل دافئةً تحت أرجلنا، كأننا نمشي على ظهر فُرنٍ مشتعل؛ وكانت رائحة اللحم المحترق تملأ أنوفنا؛ فكأنما تذكرَّ الشيخ في تلك اللحظة ذكرى، فقال لي: أليس يشوقك يا سندباد في هذه اللحظة أن تأكل خبزًا طريًّا وكبابًا مشويًّا ؟

فتراجعتُ إلى الوراء قائلًا : أعوذ بالله! كيف يخطر على بالك الآن ذكر الكباب المشويِّ والعيش الطري ؟

فغضب الشيخ وقال عاتبًا : كيف توجِّه إليَّ مثل هذا القول يا سندباد، وأنا شيخ مثل أبيك؟ وإنما حدثتك ذلك الحديث لأسليك وأدخل في نفسك بعض المسرَّة في هذا الموقف المؤلم !

قلت كالمعتذر : ولكنْ ما ذكرُ الكباب المشويِّ والعيش الطريِّ في هذه المناسبة ؟

قال وعلى فمه ابتسامة : في بلادنا، حين تجتمع نساء الأسرة للخبيز في كل أسبوع مرة، يشوين في أعقاب كل خبْزَة لحمًا؛ فنأكل في ذلك اليوم الكباب المشوي بالخبز الطري، وننام على ظهر الفرن الدافئ، فتكون أكلةً ونومةً نتمناها كل أسبوع مرة !

قلت لأصرفه عن بعض ما كان فيه من الغضب : وأنا والله أتمناها ولكن أين منا الآن خبزٌ طريٌّ ولحم مشويّ؟

وسمعت ورائي حسًّا في تلك اللحظة، فسكتُّ والتفتُّ ورائي؛ فإذا نسناس حيٌّ يرفع رأسه بين الأشلاء المحترقة، فتراجعتُ مذعورًا وأنا أقول للشيخ نسناس!

ونظر الشيخ إلى حيث نظرت، فرآه، فأسرع إليه، وتبعتُه غير خائف ولا حذر؛ وأدهشني أنه كان سليمًا معافى صحيح البدن كأن النار لم تمسه، ولكن دهشتي زالت حين رأيت ثيابه مبتلَّة، فعلمت أنه كان في الماء، فلم يصعد إلى الصخرة إلا بعد انطفاء النار المشتعلة . .

13

نجاة شهبندر

قال سندباد :

لم أكن أعرف من لغة النسانيس حرفًا، ولم أكن أظن أنني أفهم منها حرفًا، ولكن الشيخ سمع وفهم وعرف ما يريد النسناس أن يقوله وأجابه إلى ما كان يطلبه؛ ثم أخذ الشيخ يحكي لي ما سمعه فقال هذا النسناس الوحيد الباقي على ظهر الأرض؛ وكان قد رمى نفسه في الماء مع بعض أصحابه حين رأوا النار تشتعل، فغرقوا جميعًا ونجا وحده !

قلت : وماذا ترى في شأنه؟

قال الشيخ : وماذا ترى أنت؟

قلت : أرى أن نتركه ونمضي!

قال : بل نأخذه معنا، فإنه لا خوف منه الآن وقد هلك أصحابه، ولعلنا نستطيع أن نحمله معنا إلى أرض أخرى، ليتفرج عليه الناس فنكسب من فرجتهم مالًا !

وكان النسناس يسمع ويفهم ونحن لا نظن ذلك، فلما سمع حديث الشيخ إليَّ صاح قائلًا : بربكم لا تجعلوني فُرجةً، ولكم عليَّ ثمنُ هذا المعروف !

قال الشيخ : وما ثمن هذا المعروف؟

قال : تعالوا معي!

ثم أخذ يثب أمامنا ونحن نتبعه حتى انحدر من فوق الصخرة، ثم استمر يثب حتى توسَّط الوادي، ثم انحرف إلى اليمين حتى بلغ طريقًا ضيقًا بين جبلين؛ ثم استأنف الوثب حتى بلغ مغارةً أخرى غير المغارة التي تركنا فيها زميلينا؛ ولكننا مع ذلك لم نتردد، ودخلنا . .

وكانت المفاجأة التي تنتظرنا في داخل المغارة أعظم مما كنت أنتظر . . .

ليس من حق الإنسان أن ييأس من رحمة الله في لحظة من لحظات عمره، فإن رحمة الله أعظم مما ينتظر أوسعُ الناس أملًا وأقواهم إيمانًا ...

إن الله الذي يشق الفجر المنير في ظلمات الليل الدامس، أعظمُ قدرةً مما يتخيَّلُ كلُّ متخيِّل، وقد آمنتُ بقدرته، وبرحمته، منذ خطوتُ أول خطوة في داخل تلك المغارة، فرأيت، وماذا رأيت ؟

رأيت إنسانًا من الناس لم أكن أظن أنني سأراه، لا في هذا المكان ولا في مكان سواه . . .

رأيت أبى شهبندر !

رأيته حيًّا، سليمًا معافى، وكنت أظن النسانيس أكلته وبعثرت عظامه، وعرفتُه منذ وقعتْ عليه عيناي؛ ورآني فلم يعرفني!

إما أنا فعرفته لأنى قابلته منذ سنوات، في جزيرة مجهولة كهذه الجزيرة، ولكنه فارقني قبل أن أعرف أنه أبي، وقبل أن يعرف إنني ولده؛ فلما قرأتُ بعد فراقه ما خلَّف من أوراق مكتوبة، عرفت أنه أبي، فادَّخَرْتُ صورته في ذاكرتي .

وأما هو فلم يعرفني لأنه يوم فارقني لم يكن يعرف أنني ولده؛ بل لم يكن يظن أن له ولداً؛ فانمحت صورتي من ذاكرته منذ فارقني. . .

ولما رأيته ماثلًا بين يدي بصورته وهيبته وتمام عافيته، ارتميت على صدره وأنا أقول له : أبي! شهبندر! الحمد الله على سلامتك يا أبي!

وكانت فرحتي في تلك اللحظة أقوى من قلبي، فغبتُ عن الدنيا وفقدت رشدي؛ فلما أفقت بعد لحظات رأيتني راقدًا على الأرض أمام المغارة، ورأسي على فخذه، ويده تعبث بشعري، والشيخ جالس بين يديه يحدثه، والنسناس الحيُّ واقف على بُعد ينظر إلينا . . .

ورفعتُ رأسي عن فخذه واستويت جالسًا بين يديه، ثم طوَّقته بذارعي، فجذبني الشيخ إليه وهو يقول لي: اجلس هادئًا واسمع يا سندباد !

فأرخيتُ ذارعيَّ لأجلس وأسمع؛ ولكن ذراعيْ أبي ظلَّتا تحيطان بي وكان في عينيه دموع، وكانت دموع مثلها تتحدر على خدي . . .

ثم أطلقني أبي من بين ذراعيه، ورفع يده إلى وجهه يجفف دموعه، واسترسل الشيخ يقص قصةً كان قد بدأها قبل أن أفيق . . .

وكان الشيخ يعرف بعض قصتي، من طول صحبتي له، فأخذ يقصها على أبي؛ وكان يعرف قصة أبى ويخفيها عني؛ فبدأ يقصها عليّ . . .

ولما فرغ الشيخ من قصتي إلى أبي، ومن قصة أبي إليَّ، بدأ أبي يتحدث؛ وكان حديثه عذبًا كأنه نسيم السَّحَر، هادئًا كأنه حلم ليلة سعيدة؛ وكنت أستمع إليه بكل جوارحي؛ كأن في كل عضو من أعضاء جسدي أُذنًا تسمع . . .

14

رحلات شهبندر

قال شهبندر :

لقد انقطع ما بيني وبين أهلي يا بني منذ سطا عليَّ اللصوص في طريقي ذات مساء، وأنا عائد من رحلة تجارية رابحة، فسلبوني بضاعتي ومالي ومال عملائي . . .

ولم يكن في طاقتي أن أتراءى لعملائي وقد ضيَّعت مالهم، فقررت ألا أعود إلا بعد أن أجمع مالًا أسدد به ما عليَّ من ديونهم . . .

ثم جاءني النبأ بأنَّ امرأتي ماتت، ولم أعلم حين بلغني موتها أنها خلَّفت ولدًا، فزادني هذا انقطاعًا عن أهلي . . .

ثم اتخذتُ زوجةً أخرى في بلد آخر، واستبدلت أسرةً بأسرة ودارًا بدار؛ واستمررت في تجارتي لأجمع مالًا أسدد به ديوني . . .

ثم عدت ذات يوم من إحدى الرحلات إلى داري الجديدة، فإذا النخَّاسون قد ذهبوا بابنتي شمس زاد، وكانت سلوتي في غربتي، فخرجت للبحث عنها فيما أعرف من البلاد . . .

وطالت غيبتي ثم عُدت، فرأيتُ الدار خلاء ليس بها أحد . . .

وكنت قد جمعتُ مالًا أستطيع أن أسدد به ديوني وأعيش ما بقي من عمري في سترٍ وتصوُّن، فأزمعت عودةً إلى وطني الأول؛ ولكني لم أكد أصل إلى داري حتى تبيَّنتُ خيبة المسْعَى؛ فقد رأيتُ للدار مالكًا جديدًا لا يعرفني ولا يعرف أحدًا من أهلي؛ فأيقنت أنَّ الله لم يكتب لي الاستقرار، وأزمعت رحلةً جديدة . . .

وصمت شهبندر برهةً ثم عاد يقول :

وعدت إلى الترحال وإلى التجارة، أحاول أن أنسى فيهما همومي؛ ثم رماني القدر إلى هذه الجزيرة، وكاد يأكلني النسانيس . . .

قال سندباد : وكيف نجوتَ وقد بحث عنك باقر فلم يجد إلا عظامًا !

فالتفت شهبندر حواليه وهو يقول: باقر! أنت تعرفه ؟ يرحمه الله!

قال سندباد : إنه حيٌّ، بخير وعافية!

قال شهبندر متعجبًا : حي؟ سبحان الله! لقد بحثتُ عنه حيث كان فلم أجد إلا عظامًا، فظننتُ أن النسانيس أكلوه!

قال الشيخ باسمًا : ما أكلوك ولا أكلوه، وإنما رأى كلٌّ منكما عظامًا، فظنها عظام صاحبه، وكلاكما – برعاية الله – حي!

فتنفس شهبندر نفسًا عميقًا ثم قال الحمد لله !

ثم نظر إلى النسناس الواقف على بعُد فقال : وكان هذا النسناس صاحب فضلٍ عليَّ، فأعانني على الإقامة في هذه المغارة المجهولة وكان يحمل إليَّ طعامي وشرابي ويحميني . . .

15

في أمان الله

قال سندباد :

كان لقائي لأبي مفاجأةً غير منتظرة في تلك الجزيرة؛ فلم أكد أصدق عيني حين رأيته، وخُيِّل إليَّ أنني في حلم من الأحلام لا في حقيقة؛ فتركته يتحدث وسرحت بخواطري إلى كل مكان.

وكانت معرفته بأني ولده مفاجأة لم يكن ينتظرها كذلك؛ ولكنه كان أثبتَ مني جنانًا، فمضى يتحدث إليَّ وإلى الشيخ في انشراح وطلاقة، وهو يُربت كتفي ويضغط على ذراعي بلطف وحنان . . .

وتذكرنا بعد لحظة زميلينا باقرًا وأبا الإسعاد، وتذكرنا النسناس الوحيد الذي بقي من قومه بعد هلاكهم؛ فخرجنا من المغارة لنذهب إلى زميلينا، ونحن نطمع أن يصحبنا ذلك النسناس، لنذهب به حيث نذهب ولكنه اختفى عن عيوننا ولم ندر أين راح؛ فلم نأسف كثيرًا على رواحه.

ومضينا إلى المغارة الأخرى، حيث تركنا باقرًا وأبا الإسعاد، وفى نفوسنا قلق شديد عليهما، وكان الله لطيفًا بهما وبنا، فرأيناهما بخير وقد خفَّت آلامهما شيئًا ما . . .

وكان فرحهما بلقاء أبي عظيمًا، وعجبهما لهذه المصادفة أعظم، ولم يصدق باقر عينيه مثلي، فقد كان يظن أن النسانيس أكلت أبي، فلما رآه ماثلًا بين يديه قال : هل بعث الله الموتى؟

فضحك أبى وقال : قد بعثني من الموت كما بعثك يا باقر!

وعرف باقر مصير النسانيس، فحمد الله على هلاكهم، وقال : أفلم يبق في الجزيرة كلها إلا ذلك النسناس الواحد ؟

قال الشيخ : نعم وما أظنه يبقى حيًّا بعد هلاك قومه !

قال أبو الإسعاد :ليته يبقى ليتفرج عليه الناس !

قال أبى : حرام ! لقد كان نسناسًا طيب القلب، وله عليَّ جميل لا أنساه؛ وإني لأتمنى أن أعثر به لأردَّ إليه الجميل !

قال باقر : لستُ آمن له ولا لواحد من جنسه، إنهم جنس شرير !

قال أبي : نعم، ولكني آسف أشد الأسف على ذهاب ذلك النسناس قبل أن أرد إليه الجميل !

*****

وقضينا تلك الليلة في المغارة، وتناولنا طعامًا غير شهى من ثمرات ذلك الشجر الكثير وراء باب المغارة، فلما أصبحنا أخذنا نفكر في طريقة نخرج بها من الجزيرة، ولكن الشيخ قال : أليس من حقنا وقد صارت الجزيرة ملكًا خالصًا لنا أن نجول في أنحائها لنعرف ماذا فيها من خيرات مخبوءة ، لعل الله يعوضنا خيرًا بعد الذي لقيناه من التعب والمشقة؟

ولم أجد في نفسي حماسةً لهذه الفكرة؛ إذ كنت حريصًا على التعجيل بالسفر، ولكن الشيخ ردني إلى الحقيقة حين قال لي: أتظن يا سندباد أننا باقون هنا باختيارنا؟ إننا مكرهون يا بنى على البقاء؛ فهذه جزيرة يحيط بها الماء من كل جانب، ولسنا نملك سفينة نبحر بها فلننتظر حتى يرسل الله إلينا سفينةً تحملنا . . .

قال باقر مازحًا : لعل سندباد يعرف طريقةً أخرى نبحر بها !

وقال أبو الإسعاد : لعل في نيته أن يصنع سفينة !

قلت : إنها والله فكرة، لو كنا نملك أدوات النجارة !

*****

وصبرنا على البقاء في الجزيرة حتى يأذن الله بالفرج؛ وكان هواءُ الجزيرة نقيًّا صافيًا، فساعد على سرعة شفاء باقر وأبي الإسعاد . . .

وكنت أنا وأبي والشيخ نخرج كل يوم في الصباح الباكر للنزهة في أطراف الجزيرة ومحاولة استكشاف أسرارها؛ ثم نعود في المساء إلى المغارة لننام، ولم نكن نأكل شيئًا غير النبات وثمر الشجر؛ إذ لم يكن في الجزيرة حيوان نأكل لحمه، فاشتقنا إلى اللحم شوقًا شديدًا، ثم بدا لنا أن نتعوِّض من اللحم بالسمك؛ فصنعنا من بعض أشواك النبات صنانير للصيد وجعلنا ذلك تسليةً نتسلى بها؛ وكان أبو الإسعاد يزعم أنه بارعٌ في صيد السمك، ولكنه جلس يومين على الشاطئ والصنَّارُ في يده فلم يصطد سمكةً واحدة، فاعتقدنا أن تلك المنطقة من البحر لا سمك

فيها، ولكنَّ أبا الإسعاد لم ييأس، وذهب في اليوم الثالث إلى الشاطئ، يحاول الصيد كعادته، ونجح هذه المرة فيما أراد، وعلَّق بالصنار صيد فجذبه من الماء فرحًا . . .

ولكن الشيء الذي علق بالصنار لم يكن سمكة كما ظن بل كان شيئًا آخر عظيم القيمة، وإن كان لا يغني عن السمك شيئًا؛ فقد كان صرةً مربوطة؛ فلما حللنا رباطها رأينا فيها حديدة قدوم وقبضةً ومسامير ومنشارًا، ومصقلة؛ فصاح فرحًا لقد اصطدت سفينة!

وبدأنا منذ الغد نصنع السفينة من خشب الجزيرة !

16

سفينة النجاة !

قال سندباد :

كان لي تجربة قديمة في صناعة السفن؛ ومن أجل ذلك كان العمل سهلًا عليَّ؛ وكانت أشق مرحلة هي قطع الأشجار الضخمة لنشق منها ألوحًا رقيقةً نصنع منها السفينة؛ فإنَّ المنشار الذي عثرنا به كان منشارًا صغيرًا لا ينفع في قطع الشجر الضخم، فكنا نقضى وقتًا طويلًا نضرب أصول الشجر بالقدوم، ثم نستخدم المنشار الصغير في إتمام القطع . . .

ومضت بضعة أسابيع قبل أن نصنع هيكل السفينة، ولم يمض بعد ذلك إلا شهر حتى كانت السفينة كاملة الصورة . . .

ولم يكن يساعدني في العمل غير باقر، أما أبى والشيخ وأبو الإسعاد فكانوا يفارقوننا كل يوم في الصباح الباكر ليستكشفوا أسرار الجزيرة، فلا يعودون إلا بعد الغروب . . .

فلما كملت صورة السفينة، قلت لأبى وصاحبه : قد آن الأوان لنستعد للرحلة . . .

قال الشيخ : وهل فرغتم من كل شيء في السفينة ؟

قلت : نعم، إلا الشراع.

قال أبو الإسعاد : ليس يعنيني الشراع؛ ولكن هل وجدتم الزفت الذي تسدُّون به الثقوب وتلحمون ما بين الألواح ؟

ولم يكن هذا الأمر قد خطر ببالي، فقلت متحيرًا : الزفت!

قال أبو الإسعاد موبخًا : نعم، الزفت، أتريد أن نخوض البحر بسفينة غير مزفَّتة، فيتسرب الماء من ثقوبها وتغرق؟

فانكسرت نفسى بعد انتعاش، ووقعتُ في حيرة شديدة؛ ولحظ أبى حيرتي فأشفق عليَّ؛ ولكنه ظل صامتًا فلم ينطق؛ وظل أبو الإسعاد يردد : الزّفت، الزّفت يا سندباد وإلا غرقنا !

قال الشيخ متندِّرًا : النجارة على سندباد، الزِّفت على أبى الإسعاد ! فغضب أبو الإسعاد لهذه النكتة وصاح : أتقول عليَّ الزفت!

ولمح أبى بوادر الخصام بينهما فقال: عليَّ أنا . . . فلا تتخاصما!

ومضت لحظة صمت، ثم نهض أبي وهو يقول : الزِّفت أعظم شيء قيمةً، بل إن له الآن كل القيمة، وليس لشيء غيره قيمة !

ثم قام فغاب عنا لحظةً، ثم عاد يقول : وجدتُ الزفت، وستكون السفينة – إن شاء الله – على أهبة الرحيل بعد أيام . . .

فلما كان صباح الغد لم يذهب أبي مع الشيخ وأبي الإسعاد كعادته، بل ظل معي حتى ذهبا، ثم قال لي: أصحبني أنت وباقر لنبحث عن شيء مثل الزفت نسدُّ به ثقوب السفينة . . .

ثم مضى ومضينا معه، حتى انتهينا إلى مجموعة كثيفة من الشجر تشبه الغابة الصغيرة، فوقف ووقفنا معه، فأشار إلى مجموعة من الشجر وهو يقول : من هذا الشجر نستطيع أن نأخذ شيئًا يغني عن الزفت .

ثم مال على شجرة منها فوخزها وخزة، فسال منها سائل أبيض يشبه اللبن لم يلبث أن جمد على القشرة؛ فقال : هذ نوع من الصمغ يمكن أن نسد به ثقوب السفينة؛ فهل عندك وعاء كبير يا سندباد ؟

قلت : نعم، عندي قدر كبيرة كانت في قصر أمير النسانيس، لعلها تصلح لهذا الغرض .

ثم ذهبت فغبت لحظة، وعدت أحمل تلك القدر على رأسي، فوضعها أبى في أصل شجرة من ذلك الشجر، ثم أحدث في ساقها ثقبًا، امتلأت به وفاض على جانبيها، فقبض أبى قبضه من طين فسدَّ الثقب في ساق الشجرة، ليحبس فيها السائل ثم انحنى على القدر ليحملها ولكني سبقته إليها، فوجدتها ثقيلة؛ فتعاونت مع باقر على حملها إلى مكان السفينة؛ فقال لي أبي: الآن تستطيع أن توقد نارًا تحت القدر لتذيب ذلك الصمغ، ثم تسد به ثقوب السفينة . . .

وصنعتُ أنا وباقر كانونًا كبيرًا، ثم وضعنا عليه القدر، وأشعلنا تحتها النار حتى ذاب الصمغ، ثم أخذنا نصب الصمغ الذائب في الثقوب، فلا يكاد يمر به الهواء حتى يجمد الغراء، فيلحم ما بين الألواح ويكسو الخشب طبقةً صلبةً لا ينفذ منها الماء . .

فلما عاد أبو الإسعاد والشيخ في المساء، استقبلناهما فرحين، ثم أخبرناهما بما فعلنا، فانبسط أبو الإسعاد وقال : حسنا فعلتم . . .

ثم ألقى بين أيدينا شيئا كان يحمله، وقال لنا : وحسنًا فعلنا نحن أيضًا !

فنظرنا إلى ذلك الشيء الذي ألقاه بين أيدينا، فإذا هو طائر ذبيح كان قد اصطاده، ففرحنا به فرحًا عظيمًا، ثم صنعنا منه وليمةً وتعشَّينا عشاءً فخمًا فيه لحم، ثم تهيَّأنا للنوم . . . .

17

عودة النسانيس

قال سندباد :

واتفقنا على أن نستعد للرحلة في صباح الغد، فجمع كلٌّ منا ما كان يحرص عليه من متاع، وجعلناه في جوف السفينة، ونمنا نومًا سعيدًا هانئًا في انتظار الصباح . . .

ثم استيقظنا مبكرين، وأسرعنا جميعًا إلى السفينة وفى ظنِّنا أننا نستطيع أن نجرها بسهولة إلى الشاطئ، ولكن أملنا خاب حين وجدناها ثابتةً على الأرض فلا نكاد نستطيع تحريكها . . .

وأشار علينا أبو الإسعاد ان نفتل حبلًا غليظًا قويًا، ونربطه بها ثم نجرها؛ فأعجبتنا الفكرة، وقضينا سائر يومنا ونحن نجمع ما تيسَّر من ألياف الشجر لنصنع منها حبلًا، ثم أوينا إلى مضاجعنا لنستأنف العمل في الصباح الباكر بنشاط، فنفتل الحبل ثم نربطه بالسفينة ونتعاون على جرِّها إلى الشاطئ . . .

فلما أصبحنا، جلس أبو الإسعاد يفتل الحبل، وجلس الشيخ بين يديه يساعده، أما أنا وأبي وباقر فأخذنا ننظف الأرض ونسويها في الطريق الممتد بين السفينة والشاطئ، حتى لا تمنعها عقبة من الانزلاق بسهولة إلى الماء؛ فلما أتممنا تنظيف الأرض وتسويتها، رأى باقر أن يرشها بالماء حتى تتوحَّل، ليساعدها الوحل على الانزلاق، فما زال يرش الأرض بالماء حتى صارت كالصابون .

ولم يلبث أبو الإسعاد أن فرغ من فتل الحبل، فربطناه بمقدم السفينة، ثم جعلنا في طرفه عروة كبيرة نمسكه منها، واستعددنا للجرِّ . . .

وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب، فاقترح أبي أن نستريح يومنا ونتهيأ لاستئناف العمل في الصباح؛ ولكن أبا الإسعاد صاح به: كفى تأخيرًا، فلنجرها الآن إلى الشاطئ، لنبيت فيها ليلتنا ونبحر في الصباح.

فأطعنا رأيه، وأمسكنا بعروة الجبل نجذبه ثم انجرت؛ ولكنها لم تكد تنتقل من مكانها حتى بدأنا نشعر بالوحل تحت أقدامنا كأنه رغوة صابون، ولم يلبث أبو الإسعاد أن زلق، فوقع على وجهه في الوحل وجرنا وراءه ثم نهضنا ولم نكد، ولكن بعد أن تلوثت ثيابنا وأيدينا ووجوهنا . . .

وآمَنَّا بعد هذه الزُّحلوقة أنَّ من الخير الانتظار إلى الصباح حتى يجف الطين؛ وعدنا إلى الأرض الجافة حيث افترش كل منا بعض ثيابه ونام . . .

وما كان أشد دهشتنا حين استيقظنا في الصباح فلم نجد الحبل حيث تركناه ولم نجد السفينة حيث كانت، ورأينا آثار جرها على الوحل، فلم ندر من فعل ذلك قبل أن نستيقظ . . .

ومشينا على آثار السفينة إلى الشاطئ، ولكننا لم نجد لها أثرًا . . .

أين ذهبت سفينتنا الغالية التي بذلنا في صنعها جُهْد الأيام والليالي حتى أتممناها؟ من أخذها وأين اختفى بها ؟ وكيف نعثر عليها ؟

قال أبو الإسعاد : النسانيس هم الذين أخذوها واختفوا بها ليبحروا على ظهرها إلى جزيرة أخرى، ولن نعثر عليها بعد، ولن نجد وسيلةً أخرى للخروج من هذه الجزيرة الملعونة!

قال باقر: نعم، إنها النسانيس!

قال الشيخ : لقد هلك النسانيس جميعًا فليس منهم على ظهر هذه الجزيرة نسناس!

قال أبو الإسعاد وهو يتلفَّت حواليه خائفًا : النسانيس ما زالوا أحياء يتربصون بنا الشر، لقد سرقوا سفينتنا اليوم، وغدًا يسرقون أرواحنا !

قال أبي في هدوء : لا تظلموا النسانيس؛ إن الذين سرقوا سفينتكم من البشر لا من النسانيس؛ انظروا إلى آثار أرجلهم في الوحل؛ إنها أرجل آدمية لا أرجل نسانيس؛ هاتان قدمان، وهاتان قدمان أخريان وهذه أقدام كلب؛ لقد كان معهم كلب . . .

قال الشيخ وهو ينظر معه إلى آثار الأقدام في الوحل : صدقت يا شهبندر؛ هذه أقدام بشر لا أقدام نسانيس؛ فمن هؤلاء ؟ وماذا جاء بهم إلى هذه الجزيرة ؟ ولماذا سرقوا سفينتنا وتَوَاروا بها؟

إن شرًّا مما نتوقع، يتربَّص بنا في هذه الجزيرة الملعونة . . .

18

أحفاد شهبندر !

قال سندباد :

كان اختفاء السفينة عجيبًا ومريبًا وباعثًا على القلق والخوف والحيرة؛ ولكن قلقنا وخوفنا وحيرتنا لم تلبث أن زالت وحل محلها عجب ودهشه؛ إذ لمحتُ كلبي " نمرود " مقبلًا من بعيد؛ فلم يكد يراني حتى وثب إليَّ وتعلق برقبتي وأخذ يلعق وجهى بلسانه؛ ثم نام على كتفي آمنًا مستسلمًا كما ينام الطفل على كتف أمه . . .

وكيف وصل نمرود الساعة إلى هذا المكان، وقد فارقتُه منذ عام أو أكثر من عام على بُعد آلاف الأميال من هذه الجزيرة ؟

ثم رأيت شخصًا مقبلًا من بعيد؛ فلم أكد أتبين ملامحه حتى اندفعتُ إليه صائحًا : صفوان ! يا عزيزي صفوان !

وكان أبو الإسعاد قد أوتر قوسه حين رآه مقبلًا من بعيد، ليرميه بسهمه؛ ولكنه رآني أندفع إليه باسطًا ذراعيَّ للعناق، فألقى قوسه وسهمه وظل واقفًا في مكانه ينظر إلينا في عجب ودهشة .

وقبل أن أفيق من أثر المفاجأة لمحتُ على الطريق ثلاثة شخوص تقترب، فهممت أن أسبق إليهم لأتبين أمرهم؛ ولكن صفوان أمسك بذارعي فردَّني إلى مكاني وهو يقول : انتظر يا سندباد . . .

ولكني أم أطق صبرًا؛ فاندفعت إليهم صائحًا : هلهال !

وسمعت أبي ورائي يهتف باسم جاسر، ثم يندفع إليه . . .

أما الشخص الثالث فكان " بلخير " زوج أختي قمر زاد . . .

يا لها من مفاجأة عجيبة ! كيف اجتمع هؤلاء الأربعة من أصدقائنا وأهلنا في هذه الساعة على أرض الجزيرة قبل أن نفارقها بساعات ؟

أهم الذين أخذوا سفينتنا وأخفَوْها عن عيوننا لئلا نبحر على ظهرها قبل أن يلقونا؟ فمتى وصلوا إلى الجزيرة ؟ وماذا كانوا يركبون ؟ وعلى أي شواطئ الجزيرة هبطوا ؟ وأين أخفوا سفينتنا؟

ووقفنا نتبادل القُبُلات والعناق، وعلى كل فم سؤال لا يجد جوابًا، والأصوات مختلطة متداخلة فلا يكاد يفهم أحدٌ من أحد حرفًا . . .

ولكن بلخير رفع صوته فوق أصواتنا وهو يقول : لا يجوز أن نترك قمر زاد تنتظر في قلق أكثر من ذلك، إنني ذاهب إليها . . .

فرد أبى ملهوفًا : قمر زاد ؟

ثم اندفع إلى بلخير فتشبَّث بذراعه قائلًا : نذهب إليها . . .

فتشبَّثتُ بهما قائلًا : أين تنتظر قمر زاد ؟

قال بلخير : لقد تركناها تحرس السفينة؛ فاتبعوني إن شئتم!

ثم مضى مسرعًا ومضينا وراءه حتى بلغنا شاطئًا آخر بعيدًا . . .

ولم تكن قمر زاد تحرس سفينةً واحدة على ذلك الشاطئ، بل سفينتين؛ ولم تكن وحدها في حراسة السفينتين، بل كان شخص آخر لا نعرفه ولا يعرفنا؛ فلم تكد قمر زاد ترانا مقبلين من بعيد حتى وضعته عن كتفها وأسرعت إلينا . . .

وأقبلتْ تحضنني وهى تقول فَرِحةً باكيةً أخي سندباد !

فانتزعها أبي من بين ذراعيَّ وهو يقول بحنان : ابنتي قمر زاد !

وأسرع بلخير إلى السفينة فحمل الطفل بين ذراعيه، ثم أسرع إلى أبي فدفعه إليه وهو يقول : حفيدك "خير" يا عمي، ابن قمر زاد !

وكف الطفل عن البكاء بين ذراعي جده، ورفَّت على شفتيه ابتسامة !

وشعرتُ بالسعادة تملأ كل جوانب نفسي، فقلت باسمًا : اليوم قد اجتمعت أسرة شهبندر جميعًا إلا ثلاثة نفر، نرجو أن يجتمع شملنا بهم في خير وسعادة ؟

قال صفوان ضاحكًا : إنهم أربعة نفر لا ثلاثة يا سندباد !

قلت : من تعني ؟

قال : ألست تعني شمس زاد ، وأمها ، وعمتها ؟

قلت : بلى !

قال صفوان : ولكنك لم تذكر عضوًا رابعًا من أسرة شهبندر، هو طارق بن صفوان !

قلت مدهوشًا : ابنك ؟

قال : نعم ابنى وابن أختك شمس زاد !

وقال جاسر : ما كان أجدر شهبندر بأن يكون جدًا لأكثر من حفيدين، لو أراد سندباد !

قال سندباد : وفهمتُ ما يعنيه جاسر، فأطرقتُ خجلًا؛ وقال أبى وهو يربت كتفي بحنان: هل تريد يا سندباد ؟

فلم أجب، وأجابت عني قمر زاد فقالت : ذلك أمل عزيز تنتظره عمتي مشيرة، وينتظره ولدي " خير " ، لتكون له بنت خال لطيفة رقيقة، تشبه أخي سندباد لطفًا ورقة !

19

رحلة جاسر . . .

قال سندباد :

ثم جلس جاسر يقص علينا أنباء رحلته فقال :

أتذْكر يا سندباد رسالة كتبتها إليك منذ أكثر من عام، وقلتُ لك فيها إن أباك . . .

قلت : نعم، وقد أشعلتْ تلك السطور القليلة في قلبي نارًا وهاجت في نفسي عاصفة من الفكر؛ فلم أجد سبيلًا للخروج من حيرتي غير الاستعداد لرحلة جديدة، رَجوْت أن تكون آخر رحلاتي فأهتدي إلى مكان أبي . . .

قال جاسر : الحمد الله، فقد استجاب لرجائك فجعلها آخر رحلاتك، وهداك إلى مكان أبيك . .

ثم التفت إلى أبي وقال : واستجاب الله لرجاء أبيك، فجمع شمله بأحبابه جميعًا؛ ليستقر بعد قلق ويهدأ بعد عناء . . .

ولمحت دمعتين تبرقان في عيني أبي ثم تقطران على خديه . . .

واستطرد جاسر يقول : وقد خمَّنتُ أنك ستعود إلى عَدن، لتبدأ البحث منها؛ ومكثتُ فيها أسابيع انتظر مقدمَك؛ وكان أبوك لم يزل – كعادته – يتنقَّل بين موانى البحر والمحيط للتجارة، وأنا أتتبع حركاته حيث يذهب، لأصحبك إليه حين تجئ؛ لكنك لم تجئ . . .

وقلقت، وكان قلقي من أجلك، ومن أجل أختي أم شمس زاد ومن أجل شمس زاد نفسها . . .

وكان في ميناء عدن سفينة على نية الإبحار إلى وطنك، فركبتُها، وساعدتْنا الريح فوصلنا بعد أيام قليلة؛ ولكني لم ألقك هناك؛ وعلمتُ أنك سافرت منذ أسابيع إلى حيث لا يدري أحد . . .

وأقمت في ضيافة عمتك أيامًا سعيدة، لقيتُ فيها من كرمها ومن كرم قمر زاد وزوجها ما لا أنساه . . .

وعرفتُ في تلك الأيام صديقك صفوان، فعرفتُ فتىً كريمًا شهمًا، يفرض على كل من يعرفه أن يحبه ويحترمه؛ فلما تقدم إليَّ يخطب ابنة أختي شمس زاد لم أتردد في القبول؛ فقد كانت هي وأمها – مثلي – يحبانه ويحترمانه !

ثم تهيأتُ للرحلة إلى عدن . . .

وصمت جاسر برهة وهو يتصفَّح وجوهنا، ثم استطرد : وكان صفوان – منذ صار صهرًا لنا – يُصر على أن يصحبني في الرحلة إلى عدن، وإلى ما وراء عدن، للبحث عن صديقه سندباد وعن صهره شهبندر . . .

وأصر بلخير مثل إصرار صفوان على أن يصحبنا؛ وكانت قمر زاد تحمل في بطنها جنينًا، فلما علمت بنيَّة زوجها على الرحيل معنا خطرتْ في نفسها وساوس وتوهَّمتْ أوهامًا فأصرَّت على أن تكون معنا كذلك ليرى وليدها أباه بلخير أول من يرى . . .

وكادت شمس زاد تقول مثل قول قمر زاد وكانت مثلها تحمل جنينًا؛ ولكن أمها قالت لها " ولمن تتركين عمتك مشيرة وتتركيني ؟ "

فرضيت أن تبقى؛ وبقي معهن بهلول . . .

فلما كان اليوم المحدد لبدء الرحلة، حضر هلهال زائرًا، فعلم بنيتنا؛ فأصر على صحبتنا . . .

ووصلنا إلى عدن؛ وكنت أقدر أن ألقاك فيها أو أسمع خبرًا عنك؛ ولكني لم ألقك ولم أسمع أخبارًا عن شهبندر . . .

وأحسست قمر زاد بآلام المخاض في عدن، ثم ولدتْ خيرًا . . . وكان يوم ميلاده أشق يوم عليَّ؛ فقد علمت في ذلك اليوم أن السفينة التي كان يركبها شهبندر قد حطمتها الأمواج بالقرب من جزيرة النسانيس . . .

وكتمت بعض الخبر عن أصحابي وكشفتُ بعضه؛ إشفاقًا عليهم من القلق والمخاوف . . .

وتهيأنا جميعاً للرحلة إلى جزيرة النسانيس لإنقاذ شهبندر؛ ولقينا في الطريق أهوالًا قبل أن نصل إليها؛ ولكن الهول الذي كنا نتوقع أن نلقاه في جزيرة النسانيس كان – في تقديري – أشد من كل هول لقيناه في الطريق؛ فأعددتُ نفسي وأصحابي لكل طارئ . . .

وبلغنا شاطئ الجزيرة في أول الليل، فأرسينا سفينتنا، وهبطتُ أنا وصفوان على حذر وخوف؛ ولم نلق في طريقنا غير نسناس واحد فتربصنا له حتى صار قريبًا منا، فوثبنا إليه . . .

فقاطعه شهبندر قائلًا : ماذا فعلتم به ؟

قال جاسر : قبضنا عليه وسقناه إلى السفينة فربطناه في ساريتها، ثم عدنا إلى الشاطئ لنبحث عن أثر يدلنا عليك أو على أحد من أصحابك . . .

وقاطعه أبى مرة أخرى فقال وهو يتهيأ للقيام : أريد أن أرى ذلك النسناس !

قالت قمر زاد : لقد ذهب، فك رباطه ووثب في الماء، فلما استيقظنا في الصباح لم نجد له أثرًا قال أبى آسفًا : يا خسارة !

وتبادلنا نظرات، ثم استأنف جاسر حديثه فقال : ورأينا سفينة أخرى على الشاطئ مهيأةً للإبحار؛ فقوي أملنا في لقاء شهبندر وأصحابه، ولم نلبث أن رأيناكم، وكنتم نائمين والظلام من حولكم، فلم نعرفكم . . .

وخفنا أن تستيقظوا، فتنشب بيننا معركة في الظلام؛ وخفنا أن نترككم نيامًا فتسبقونا إلى الإبحار قبل أن نلقاكم ونتحدث إليكم؛ فرأينا أن نستولي على السفينة ونترككم نائمين؛ فإذا جاء الصباح جئناكم مستعدين . . .

ثم ربطنا سفينتكم بحبلٍ إلى سفينتنا، فسبحت بها إلى شاطئ بعيد ثم أرسينا السفينتين . . .

وأخذنا نفتش أمتعتكم في السفينة لنعرف بعض خبركم فعثرنا على صره فيها بعض ثياب سندباد . . .

قلت : قد عرفنا تمام القصة يا جاسر فشكر الله لكم هذا الفضل !

قال جاسر : ولكنك لم تعرف يا سندباد أن أكبر الفضل في العثور عليكم لنمرود؛ فهو الذي دلنا على مكانكم في ظلام الليل، وهو أول من لقيكم في ضوء الصبح !

الخاتمة

قال سندباد :

وقضينا مع أهلنا في الجزيرة يومًا آخر؛ وكان معهما لحم وزبد وجبن وبيض؛ فصنعنا وليمةً فخمةً ضخمة؛ ثم أوينا إلى سفينة جاسر، حيث قضينا ليلةً ساهرةً سعيدة . . .

وكان في نيتنا أن ننتقل إلى سفينتنا في الصباح، لتمشي السفينتان متجاورتين؛ ولكننا اكتشفنا أن سفينتنا قد تسرب الماء إلى قاعها من بعض شقوق صغيرة لم نلتفت إليها؛ فنقلنا متاعنا إلى السفينة الأخرى وأبحرنا جميعًا على ظهرها . . .

وكان بين الأمتعة كثير مما عثرنا عليه في الجزيرة ، وكان بينها كذلك ذخائر أبي التي كان يَخبَؤها في مغارته؛ ولم أكن رأيتها قبل إبحارنا؛ فلما رأيتها عرفت أي ثروة يملك، وسألتُ الله أن يعمي عنا عيون قراصنة البحر حتى نصل إلى وطننا سالمين . . .

وكان البحر هادئاً، فلم نلق في طريقنا نصبًا ولا مشقة؛ ووصلنا بعد أيام قليلة إلى ميناء عدن، ففارقنا الشيخ وباقر ودعوا لنا بالسلامة.

وقضينا ليلةً في ميناء عدن، فلما أشرق الصبح بحثنا عن جاسر فلم نجده، ووجدنا رسالة منه إلى أبى يقول فيها :

" وددت لو بقيتُ معكم إلى آخر عمري، ولكن الوطن غال فلستُ أطيق أن أفارقه فراق الأبد؛ ومن أجل ذلك قررت أن أعود إلى البحرين من هذا الطريق؛ وقد كان الوفاء يفرض عليَّ أن أودعكم قبل أن أفارقكم، ولكن لحظة الوداع أليمة؛ فاعذروني، واذكروني، واحملوا تحيتي وأشواقي إلى أختي وبنت أختي وولدها طارق، والله يرعاكم !"

وكان أثر هذه الرسالة في نفوسنا أشد إيلامًا من كل ما تخيَّل جاسر من آلام لحظة الوداع . .

واستأنفت السفينة سيرها تريد أسمرة، ونحن واجمون حزانى لا يتحدث أحد منا إلى أحد؛ ثم نزل أبو الإسعاد ليستأنف في وطنه حياةً جديدةً سعيدة؛ فأنشأ فراقُه في نفوسنا آلامًا جديدة . . .

ومضت السفينة في طريقها؛ فلما صرنا على مسيرة يومين من أرض الوطن، انتبهت عواطفنا فجأةً إلى أحبابنا الذين يشتاقون إلينا ويتمنون لقاءنا بقدر ما نشتاق إليهم ونتمنى لقاءهم، وتراءت لنا صور الأيام السعيدة المقبلة بين أهلينا وأحبابنا على أرض الوطن الغالي؛ فلم يغمض لأحد منا جفن منذ تلك الساعة . . .

وكانت الساعات الأخيرة في الرحلة طويلةً ملولة؛ فلولا الأخيلة السعيدة التي كانت تتراءى لنا في تلك الساعات لفاضت نفوسنا من شدة الضيق والملل؛ ثم وصلنا، وسبقَنا شهبندر ليطرق باب داره . . .

واجتمع في دارنا السعيدة شمل أسرة لم يجتمع لها شملٌ منذ بضع عشرة سنة، ورفرفت راية السعادة على كل من أظله سقف الدار .

وكان اكثرنا شعورًا بهذه السعادة عمتي مشيرة؛ فلم تكن في نظري يومئذ عجوزًا في السبعين، بل كانت صبيَّةً مرحةً تشبه شمس زاد وقمر زاد؛ وكان شعورنا بسعادتها يضاعف شعورنا بسعادة هذا اللقاء . . .

اللهم إننا نحمدك ونشكرك، ونسألك أن تُديم علينا هذه السعادة . . .

اللهم آمين !

[تمت رحلات سندباد]

الفهـــــرس

	الصفحة
صلة الماضي ----------	5
المد والجزر ----------	7
ذئبان يتصرعان ----------	13
عواء كلب ----------	17
فريسة الذئاب ----------	20
وجدت الكنز ----------	27
ثمن الكنز ----------	31
جزيرة النسانيس ----------	37
مغامرة في الجزيرة ----------	48
معركة النسانيس ----------	57
النجـدة ----------	61
أمير النسانيس ----------	67
آخرة النسانيس ----------	73
نجاة شهبندر ----------	79
رحلات شهبندر ----------	83

الصفحة

في أمان الله ---------- 85
سفينة النجاة ---------- 89
عودة النسانيس ---------- 93
أحفاد شهبندر ---------- 97
رحلة جاسر ---------- 101
الخاتــمة ---------- 106